إدوار الخراط

أحمد مرسي

وقات الأشواق الطائرة



إدوار الخراط

مخلوقات الأشواق الطائرة



مخلوقات الأشواق الطائرة

المؤلف : إدوار الخراط

لوحة الغلاف : الفنان : أحمد مرسى

إخراج داخلى : محمد الغليونى

الطبعة الثانية : اكتوبر ١٩٩٦

الناشر :

الجمع والصف الالكترونى :

مركز الحضارة العربية للاعلام والنشر

٤ شارع العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨

رقم الإيداع : ٩٦/٧١٤٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-5121-90-6

وتُطمعُنى الأشواقُ حتى إذا بدا
جمالُك لم أملك لساناً ولا نطقاً

«طهارة القلوب»

الدرينى

وجــه مقطــوع

«وعلى وجه الغمر ظلمة»

قلت للوجه الطافي على الغمر : لماذا .. لماذا تركتني ؟
كانت في نظرته إليّ معرفة القديم
كنت أحاجه ولم يجاوبني

قالت : وجهك ، من على جنب ، الآن فقط أراه . مثل وجه اخناتون متوتر وحساس . واستدركتْ : لا تظن أنني أغازلك .أجبتها باسماً: الآن فقط أدركت أنك فعلاً تغازلينني . فقط عندما قُلت : ولن أفوّت الفرصة.

ضحكتْ عن أسنان قوية ، لاحظت أن السِنتين العلويتين مربعتان تقريباً، كبيرتان ، فيهما أثر التدخين .

أحسست بحرارة جسمها جنبي ، تحت المائدة المزدحمة بالمدعوين والمدعوات، والفضيات الثقيلة وأطقم «ليموج» .

وكانت القاعة عالية التدفئة ، والسفرجي النوبي يملأ لي الكأس الكريستال المضلع الذي يتموج بصهبة النبيذ ويشع بشرر الضوء الحاد .

رفعت كأسها لي، في حركة تواطؤ شبه معلن، وجهها الخلاسيّ الداكن يلمع بالانفعال وحُميا المائدة . رأيت قطرة عرَق كاللؤلؤة على بلاطة الصدر الغامقة بين الثديين المدورين الصغيرين ، من غير سوتيان ، متباعدين تحت بلوزتها الحرير . كان لون جلدها الداخلي بُنّياً محروقاً أكثر من لون وجهها، غضاً ومثيرا .

قالت ، وقد ضبطتْ نظرتي : هل رأيت وجه سيبيليوس ؟ فلم أرفع عيني.

قالت ، بفقْدٍ وتوسل : ما زلت مسحورةً بقوته الصخرية . والعلاقات متعددة الصوت بين أعمدة الأرغن المعدنية وهذا الحجر الخام الذي يرسو عليه

الوجه المقطوع . هل رأيته ؟

قلت مسايراً ، جاداً ، بنصف ابتسامة : نعم . ذلك التوتر الخاص بين الخفة والرسوخ ، بين الموسيقى والصَخْر .

سوف أقول فى زمانٍ سحيق : ما أشبه وجه سيبيليوس بالوجه الواحد لرجالها الآخرين، مربع، صارم، نهائى السلطة . وما أبعد وجه اخناتون عن هاتور .

أحسست فخذها يستريح إلى جانب ساقى وأغوانى الخط المتعرج بين بياض الكف والسواد - تقريباً - فى ظاهر اليد ، وهى تمد لى كأسها ، ثانية.

سورٌ من الحجر الأبيض الهش أمام عصف الأمواج العاتية .

قلت ، وأنا أضغط بجسمى ضغطاً هيناً على فخذها ، وقد انتصبتُ :

- عندما تعودين إلى أنجولا ، بعد الاستقلال ، هل تعتزمين العمل فى الحجر، الرخام ، ونحوها ، هل تغويك مادة مثل الخشب والألياف، أوراق الشجر أو حتى القش والقماش والبوص إلى آخره؟ يعنى، ماذا أقول؟ هل أقول المادة العرضية الزائلة سريعة البلى؟ الفن الذى يُسقط ادعاءات الخلود يعنى .

قالت : أنت أسلافك سادة الخلود أليس كذلك ؟

قلت : الخلود ؟ كل مادةٍ إلى فناء . كل شىءٍ إلى فناء .

كانت نظرة عينيها الخضراوين، من فوق وجنتيها الداكنتين العظميّتين قليلاً، مرهفةً ومشتعلةً بحزن، وشوق . بينما شفتاها اللحيمتان، فيهما لَمَىً وحمرة مظلمة من غير روج، مفتوحتان، لا تنطبقان، توحيان بشهوية الأسلاف.

وكان السفير يتحدث بنبرة دبلوماسية هادئة وعليها سيماء الموضوعية عن الغارة الأخيرة على بحر البقر ، وأجاب طارق نور الدين بوصف ضافٍ عن النقاط الحصينة ، على الشط ، وقال إنها مكونة من ثلاثة طوابق على الأقل - بعضها أكثر - وإنها تغوص فى باطن الأرض وترتفع واجهاتها الحجرية حتى تصل إلى قمة الساتر الترابى ، بعلو إجمالى ٢٥ متراً أو أكثر من القاع للقمة ، وبطول ٢٠٠ متر تقريباً . كل طابق من عدة دُشَم من الإسمنت المسلح

المقوى بقضبان السكة الحديد المنزوعة وألواح الصلب . وبين كل طابق وآخر عازل من الشبكات الحديدية والخرسانة المسلحة والرمال المدموكة بسمك مترين تقريباً . وقال إن كل دُشْمة فيها عدة فتحات تمكّنها من الاشتباك فى جميع الاتجاهات ، والدُشَم مجهزة بقطع المدفعية من عيارات مختلفة ، وفيها دبابات أيضاً ، وتتصل بعضها ببعض بخنادق مواصلات عميقة مبطنة بألواح الصلب وشكاير الرمل ، وقال إن هذه النقاط مُعَدَّة لتلقى قنابل ألف رطل دون أن تتأثر ، وإن الإمدادات فيها - ذخائر ومياه وتعيينات - تكفى لمدة لا تقل عن شهر . وقال إنها يمكنها أن تقيم سواتر من النيران متصلة على طول الشط، دون ثغرة ، وإنها مصممة بحيث لا يمكن أن تنال .

كان صوته تفصيلياً ، محدداً ليس فيه ما يوحى باليأس .

قالت لى : هل قابلت إيبلا هيلتونين ؟

قلت، بغضب : نعم ، كلمتنى هى أيضاً عن اخناتون . امرأة صغيرة القد، كيف صنعت هذا النصب العملاق .. ؟ هل لا حظت القوة فى أصابعها الرقيقة؟

كانت مدام عايدة ، زوجة السفير ، تجلس على مبعدة قليلاً ، فى الجانب المقابل للمائدة . (عرفت فيما بعد أنه وزير مفوض فقط وأنه أحد ثلاثة أقباط وصلوا إلى هذه الدرجة فى السلك الديبلوماسى ، أحدهما فى الملايو والآخر فى الكونغو) وكانت نحيلة وأنيقة جداً وصعيدية الملامح ، ذكّرتنى بعايدة مكرم عبيد وسألت نفسى : ترى أما زالت تعيش .

قالت لجارتى بالفرنسية ، بلهجة باريسية لا تشوبها أدنى لكْنة :

- مارتا ، هل خلصت من بورتريه أجستينو نيتو ؟

ابتسمت جارتى وقالت ، بلكنة برتغالية قليلاً :

- وهل يمكن أن أخلص منه أبداً ؟

وعرفت فيما بعد أن علاقة حميمة تربط بينهما .

لم أتمالك ، فضحكت بصوت عال ، لعل النبيذ كان قد صعد إلى رأسى . التفت إلىّ الأنظار لحظة ، ثم عاد لغط الحديث عن الحرب والسياسة وفضائل أصناف الأكل المصرية وميزان القوى الدولية ، مع إيقاع اصطدام الشوك والسكاكين على الصينى ، وارتفاع الكؤوس وأمواج المودة التى تأتى مع الطعام الجيد والشراب الجيد .

تذكرت أننى سأقول فيما بعد الزمن الأخير :

– عذبتنى الثانية لسيبيليوس زلزلت قلبى

وأنها سوف تقول :

الموسيقى بناء وتشكيل فى ذاته . تصميمٌ نصىٌ بحت . ليست هزة للقلوب. ولا توحداً بمشاعرك أنت . ليست عاطفية .

أم أننى لم أقل ، ولم يحدث ؟

فى قلب الليل كانت بين ذراعىّ وساقىّ ، عارية وصلبة القوام وأملوداً لدنة معاً ، حارة وباردة الجلد ملساء معاً . جسماً خالصاً .

تقاطيع هذا الجسم كاملة، برونزية الصياغة . كانت أصابعها المحنكة تتحسسنى وتعرك انتصابى تعجم عوده بدُربة ومعرفة . مر بخاطرى خطفاً : كم مرة فعلت هذا مع الرجال، وتماثيلهم؟ وكأنما قلت، مخطوفاً: ما أهمية ذلك، ما معناه حتى؟ وكان ريقها رطباً، وشفتاها الكبيرتان فيهما سخونة، وملاءة خاصة. وكانت تضحك فجأة، وحدها ، من سعادة اللحظة . ولم تكن ترانى .

الأزهار المُرّة صلدة .

عندما خرجتُ على وجه الصبح فى انتظار التاكسى الذى طلبتْه لى بالتليفون ، باللغة الفنلندية ، والذى سوف يحملنى إلى غرفتى فى الفندق – وقد رأيت وحشتها وخواءها من الآن – صدمتنى هَبّات البرد ونفذت إلى عظمى . أحكمتُ لف الإيشارب الصوف حول رقبتى تحت ياقة المعطف الثقيل. كانت أكوام الثلج الصغيرة القذرة على جانبى الأرصفة ومفارق الطرق تذوب ببطء وتسيل بماء قليل له خرير مسموع فى صمت ما قبل الفجر . وأنوار

مصابيح الشوارع صفراء تومض بهالات غير منتظمة الاستدارة فى بلل الهواء المحمل بقطرات دقيقة جداً من ماء الضباب . الأبنية الراسخة تبدو لى ثقيلة ومغلقة وجدرانها السميكة لا منفذ منها ، وطأتها لا تحتمل . ورأيت على ناصية الشارع الكلمات تنير وتنطفئ بالنيون : "MILK BAR" ووراء الواجهة الزجاجية الممتدة بطول المبنى ، ساطعة من الداخل بالنور الثابت ، قامت علب الزبادى المرصوصة فى أهرامات منتظمة ، وأنواع الجبن فى أقراصها المدورة الصفراء الصلبة ومربعاتها البيضاء الطرية المتماسكة وزجاجات اللبن منتفخة البطون متعددة الأحجام والمعلبات الأخرى التى لم أعرف أن أقرأ ما عليها ومكعبات الزبد فى أغلفتها الفضية ، وراء زجاج الثلاجة الضخمة ، كلها أنيقة كأنها موسيقية النَسَق ، تحسب أنه لا يمكن أن يمسها سوء .

تحت الواجهة الزجاجية العريضة تماماً ، كان الرجل راقداً على الرصيف المبلول ، معطفه مفتوح عن بطنه الضخم الذى يرتفع وينخفض فى إيقاع التنفس الصعب ، وقميصه مشعث خرجت أطرافه من حزام البنطلون ، ووجهه محمرّ مربدّ ومغمض العينين فى نسيان تام . قلت : هل تتركه هذه المدينة ، هذا العالم ، كما تركهما ؟ قلت : ألن يسعفه شىء ، ولا أحد ؟ قلت : أبحاجة هو إلى نجدة ، أم فى هذه الظلمة نجدته ؟ ودهشت إذ جاءنى من بعيد صياح ديك ، طويل وموقّع فى السكون ، ونباح كلب لا يكاد يستبين . كأننا فى قلب الريف . بينما التاكسى يصل إلى وسط المدينة بعماراتها الشامخة الصامتة ، ونفيره ، من النوع القديم ، ينبهنى : «أوْ .. أوْ ..» موجزاً وعميق النبرة . عاد إلىّ فجأة ليل الطفولة المتوهج أبداً بظلامه الخاص وتحركت أشواق الطفولة القاهرة ، وقلت : ما أكثر ما يحمل الفجر من مرارة .

قلت فى ليلى : أيسقط دمى فى الشوارع أمام وجهك ؟

قلت : هربت من وجهه الأرضُ والسماء ، ولم يوجد لهما موضع .

وقلت : كثير التحنُّن . لم يحوِّل وجهه عنك .

لكنه لم يتكلم . لم يجاوبني .

كان قلبي ممتلئاً أشباحاً،والظلمة التي فيَّ كاملة .

وجه الحجر لم يتدحرج عن فم القبر . هل جاء ، ومضى ؟

تضرعتُ : مدِّي أصابعك والمسي فمي . لكي يضيء وجهكِ كالشمس في داخلي وتصير جوارح جسدك بيضاء كالنور . أفي هذا خلاصي ؟

وجدتُ نفسي طعيناً . آثامي مدفونة في أرض جنَّاتي . أبيتُ طول الليل على شواهد المقابر وأقيم طول النهار محرقة متقدة لها دخان دسم يرتد إليَّ دون رسالة .

كانت على جدار غرفتي في الفندق بقعة بيضاء ترفرف وتعطيني حساً بأنها فراشة كبيرة جاءت من الأشجار تحت أنوار الشارع ودخلتْ من النافذة . ضربتها بيدي ، بخفة ، كأنني أهشها . تضخمت فجأة واتسعت وانفجرت، دون صوت، وسالت بعصارةٍ بيضاء نقية وكثيفة كالعجين . ومن السائل البطيء الثقيل تجسد لي وجهها ، معذبةً بالألم ، ممزَّقة ، تصرخ بالشكوى دون أن تقول كلمة واحدة ، وتسيل العصارة البيضاء من عنقها . ضَرْبَتي قَتَلَتْها . من هي ؟ هل أعرفها ؟

وبجانب الوجه الذبيح كانت البقعة البيضاء تكبر ، وتتجسم ، تتخذ معالم وجهٍ آخر ، غامضٍ وصلب ، دون جسم ، دون عنق ، نظرته ثابتة . هو ، يعرفني . رأيت أن ورق الجدار كان باهتاً منقوشاً بزهور صغيرة حمراء وصفراء دقيقة الخطوط .

وما زال وجه الفتاة يحمل لي إدانة نهائية .

الإثم الذي لا يُطاق .

تُؤَرِّقني الجريمة .

١٩٨٩/٧/٢١

* * *



أشــواق المــرايا

«مُخَايَلةٌ وعَلَمٌ مُحِيق»

عندما أوشك القطار على الوصول ، وتباطأت دقات سرعته قليلاً ، كانت رائحة البصل فى الحقول ، بالليل ، تكاد تغلبنى . كان الجو حاراً ، والهواء شحيحاً ، والنافذة مكسورة .

كنت قد قررت فجأة أن أسافر ، ولو وحدى ، بآخر قطار لألحق الليلة الكبيرة ، لم أكن قد حضرت مولد مارجرجس من قبل ، قلت : أسهر طول الليل فى المولد ، وأعود بقطار الفجر .

نفذت بصعوبة ، وسط الزحام ، من الباب الحديدى العالى مفتوحاً على مصراعيه ، وكنت أنقل قدمى بحرص وأنا داخلٌ حوش الكنيسة بين أكوام النائمين والجالسين على الأرض ، فى حلقات وجماعات وعائلات ، افترشوا الحصير والأحرمة الصوف القديمة والأبسطة القماش المتربة ، الأطفال عُراة تقريباً تحت ملاءات السرير عليها آثار البقَع المصفرّة ، والنساء بقمصان النوم عارية الأكتاف والرجال بالجلاليب أو بالفانلة والبنطلون ، وبينهم العجائز يقظات متربصات لَمَمْن كَدَش شعرهن الأشيب فى أطرافه آثار الحنة وعليهن الطُرَح والفساتين قديمة الطراز مغبّرة السواد .

عندما دخلت صحن الكنيسة الغاصة بالناس كانت القبة شاهقة ومعتمة ، النساء على جنب ، غطين رؤوسهن ، يحاولن إسكات أطفالهن ، والرجال واقفون أو جالسون على الدكك الخشبية اللامعة ، يشاركون فى الصلاة

بالقبطية والعربية . كانت أمواج القُدّاس الليلى تعلو وتنخفض تحت الأنوار متعددة البؤر من السقف وتحت تيجان الأعمدة الرخامية الرومانية الشكل . صور المسيح وتلاميذه القديسين تبدو باهتة وتحتها نور الشموع أصفر ضعيف. أمام حجاب الهيكل صورة هائلة لمارجرجس يطعن الحية العظيمة ، والنور الكهربائى يومض على زجاج الصورة ويكاد يطمس معالمها .

انتظرت قليلاً ثم خرجت إلى الحوش المزدحم ، ومررت على باب الكنيسة بالقس فى ثيابه السوداء يصلى ويُعزّم ليخرج الشيطان من امرأةٍ مصروعة، ولاحظت حلل الطبيخ وبوابير الجاز مطفأة تحتها . قلت : تعشّوا من زمان، وناموا ، أو سهروا فى انتظار العريس .

كانت رائحة البصل من الحقول قد خَفّت الآن كثيراً ولكن أنفاسها ما زالت معلقة فى السماء المكتومة .

أصداء القُدّاس غير المفهومة تأتينى من داخل الكنيسة والتسابيح والترانيم من المولد، مختلطةً بأغانى الراديو ، والمواويل وترجيعات المزامير وإيقاعات الصاجات السريعة المجوّفة النبرة وشكاة السمسمية من خيام الأذكار وغناء الرجال القوى الخشن من السرادقات المفتوحة المقامة على قضبان خشبية رفيعة، بين صفوف أكوام البطيخ المفروشة على الرمل وعربات الفاكهة واللب والسودانى والمجيلى والكُشَرى، وباعة الفلافل التى تطش فى طاسات الزيت الضخمة الفوارة، ونصبات المقاهى المُرتجلة بموائدها الصفيح، ومدخنى الشيشة والجوزة، والوشامين الذين تتقد على الدكّك الخشبية أمامهم فوهاتُ لهبٍ حادة قصيرة من اسطوانات الغاز الصغيرة يرسمون بالإبر الدوارة الدقيقة، والوشم الأزرق، علاماتِ الصليب على معاصم النساء وصور الشهيد العظيم على صدور الرجال .

فجأةً رأيت المرآة الكبيرة القديمة مسنودة من الخارج على الباب الحديدى

لحوش الكنيسة .

كان لها إطار مذهب باهت الآن ، سقطت قشرته عند الأركان ، مشغول على هيئة أزهار وأغصان متشابكة متلوية على الطريقة القديمة، بينها وجوه الشاروبيم الصغيرة المدورة منتفخة الخدود . وكانت ناصعة الزجاج ، صافيةً بنقاء لا تشوبه هبوة ، وعميقة .

كانت ساحة المولد الغامضة بالليل ممتدةً بداخلها ، كلها ، بأنوارها المتراقصة: حبال المصابيح الكهربية الممدودة والمتدلية ، وكلوبات الغاز اللبنية الضوء ، ومشاعل النار المدخنة على عربات الترمس ، والبرتقال الصيفى .

ـ رأيت الرجل الغريب يقف أمام المرآة، جامداً، يحدق فيها بثبات، لا يتحرك . كان نحيلاً وطويلاً، قدماه الغليظتان تبدوان مفلطحتين ومتربتين فى الصندل المعمول من مطاط العَجَل وحبل الليف . وكان عليه جلباب صوفى قديم رثٌ نسيجُه وخفٌ وتقطع ، وظهر تحت تمزقاته جسمه الداكن وعظامه العجفاء .

ورأيت حول رقبته الضاوية - تفاحة آدم كانت كبيرة جاحظة - صليباً خشبياً ضخماً بأطرافه المورقة ، معلقاً بحلقة من الجلد الأسود الذى بدا لى فى أنوار الليل المهتزة ، غيرَ نظيف تماماً .

كان معتمراً بكوفية طويلة كالحة السواد تلفّ رأسه وتنزل على كتفيه .

وكانت عيناه عميقتين ونارهما متقدة فى الحفرتين الغائرتين .

مَنْ الرجل ، عم لاونْدِى ؟ لا يمكن .. كنت طفلاً عندما عرفته لأول مرة ، فى أخميم . كان يسرق لى الحلاوة الشعر وآكلها منه ، خِفية . منذ كم سنة ؟ ثلاثين ، خمسة وثلاثين سنة ؟ أو أكثر . لم تتغير فيه نأمة ولا ملمح . هو نفسه دون أدنى شك ، ودون أدنى تحول .

استبدت بى الغرابة فخطوت إليه دون تردد ، ودخلت حيز المرآة الكبيرة .

كانت المرآة خاوية تماماً ، رائقة وساطعة ، ليس فيها أدنى رقرقة .

بينما المولد يموجُ ويغصّ حواليها .

لا الرجل ، ولا أنا ، ولا شيء مطلقاً داخل الإطار القديم المشغول بالورود ووجوه الملائكة الناصلة الذَهَب .

طلبت روحى ، يانور عينى . ورروحى لَك .

رأيته ، مرة واحدة .

نحيلاً طويلاً . دقيق القامة يبتسم أهون ابتسامة . وجهه شاحب وحليق وأنيق تحت الطربوش المكوى ، الحاد الأطراف ، مائلاً على جبينه أقل ميل ، بلوقِ وغندرةِ الثلاثينات المرهفةِ الحس .

وكان جلبابه سابغاً ومهفهفاً عليه ، من الحرير السمنى السكروته ، وعليه بالطو بلدى جبردين أسود ، محكم التفصيل ،غالى القماش ، ينزل على الجزمة الصفراء ، برقبة ، أزرارها الدقيقة المتتالية مدورة ولامعة وصفرتها أدكن قليلاً من جلد الجزمة .

كنت أقف وراءه مباشرة . أراه هو ، ولا أرانى ، فى المرآة .

ليس فى المرآة إلاه .

ثم رأيتها . هل هى التى فى داخل المرآة ؟ أم هى أمامى ، تواجهنى ، خارج المرآة ؟

ابتسامتها لى أنا مُغوية ، وعيناها فى أنوار المولد صفراوان خضراوان متقلبتان بشهوية . كانت أمامى ، فستانها الحرير السمنى ، تحت الملاية السوداء الكريشة ، ينساب على جسم بض ، ونهداها يرفعان القماش وتبدو الحَلَمتان منتصبتين وراء النسيج المنسدل بنعومة .

كان شعرها ظاهراً تحت طرف الملاية ، ملموماً بعصابةٍ حمراء تقمط جبينها الناصع المدور، وكان حذاؤها عالى الكعب مدبب البوز صفرته داكنة وسير الحذاء يلف ظاهر قدميها ويحبكه يضغط على اللحم قليلاً .

كانا يتقدمان إلىّ ، بخطوٍ سريع مهاجم . وكانا متطابقين فى كل شىء . جسم واحد، ثنائياً مزدوجاً دقيق القِسمة . ولم يكن هناك حولى حركة ولا همسة . تَمَاثُلٌ تام فى كل شىء حتى حركة الأصابع الممتدة المتقبّضة التى تمسك بى . إلا فى ضميرىْ المذكر والمؤنث . حتى نظرة العينين ، واحدة ، فى حيز المرآة الذى ليس فيه شىء آخر . ثَقبٌ ، فجوة ، هوة ناصعة نقية مجوفة فى قلب ساحة المولد التى تضطرب وتمور وتعج بالناس والأشياء . فراغٌ صامت فى قلب ضجيج البهجة والاحتفال . وكأننى - أنا - على التخوم . لم أعد منظوراً ، لا هنا ، ولا هناك .

قلت : ليس هذا انعكاساً لأحدهما الآخر .

قلت : كلٌّ منهما قائم لا يريم . وكل منهما مُخَايلة ، خَتْل .

الشهيد الرومانى كان قد ضرب الحية العظيمة على شط النهر ، تحت سور المدينة وماء النهر كان يتدفق دماً . الحية العملاقة تنتظرنى وتواجهنى بعينٍ لا تطرف . أمواج الدم شربتها الأرض ، سدى ، هدراً ، مضيْعة .

قلت : لماذا أقول قولى للمياه المنصبّة ؟ شفتنا المياه لا تحفظان القول .

قلت : كنت أريد المعرفة . كنت أريد الحب . كنت أريد العدل .

سمعته، من داخل عمق المرآة، دون صوت : هذا أوان المحاق، ومطلق الغيبة .

قلت : أشواقُ مرايا الوجود .

قال : وجدانُك إياها فقدانٌ مستديم . الوجود نهاية . أما هنا والآن ، فما

من نهاية ، ولا من بداية .

استدارت إلىّ فجأة . وانحدرت الملاية عن كتفيها قليلاً . كان فستانها معلقاً بحمالتين سوداوين ، تلمعان ، وكانت سمراء ، مبتلة اللحم ، رقراقة ، تمدّ لى أصابعها المكتنزة الواضحة المفاصل .

أمامى ، أيقونةٌ طويلة مشعة ، ألوانها فضية ذهبية ، على خشب شفاف فيه شقوق لا تُرَى . النور يصعد إليها من شموع غير منظورة يغذوها الزيت المتقطر من عظام صدرى . وكانت تغدق علىّ معرفةً لا حد لها ، وتحجزنى عنها فى وقت معاً . وكنت أريدها . الشهوة والمعرفة معاً . وأدركت مدى تعثرى وقلة حيلتى .

قلت : طوّحنى الحلم ، وتخبطتُ خلف الأخيلة ، يداى خاويتان وروحى قاحلةٌ وسخريتى ملء آذانى .

لكنها كانت تعطينى ، بحسابٍ أو بغير حساب سواء . عطيّتها مجدى وتسبيحى . ورأيت أنها محبوسة داخل المرآة . محاصرة . الإطار المذهب القديم يحددها ، وحدها ، وهى بؤرته .

قلت : أهى تتحدى الزوال ؟ هل تقف فى الدوام ؟

قلت : طلبتِ منى روحى يانور عينى ، وروحى لكِ .

كانت الحدود قاطعة . ما فى داخلها مركزٌ ساطعُ النور يؤكد تَعيُّنها ، ويثبته . وفى هذا الداخل كان تغيُّرها هو نفسه وحدانيتها .

كانت تنادينى بكلمات المحبة والحنو ، وبنداءات الشهوة معاً ، داعرةً وامقة حباً ، تدعوني، بغواية لا أقاومها ، إلى تخطى عتبة قاتلٌ عبورها . ولم تكن المقتلة ما يُثنينى . قلت : «نفسى ليست ثمينة علىّ» . ولكن الخط الفاصل حادٌ ورفيع مثل سن الشفرة وعميقٌ مثل هوة لا قرار لها . ومجاهدتُه

تبدو محالاً . أمد إليه يدى فلا تبلغ شيئاً .

ومع تموج جسدها اللدن ، وتضرج الشفتين بالدم ، وعمق الكُحل على العينين النجلاوين الضاريتين، لم أجد حرارة ولا أدنى دفء . كانت فى داخل المرآة، ليس لها مادة، مع تجسدها. لم يكن هناك معى إلا خواء هذا الداخل البرىء من كل عضوية، كان ملمس فمها المفتوح بارداً ومثيراً. أنفاسها متتابعة مخطوفة تحت شفتىّ، وبين ذراعى استحالةُ التلامس مع أنها كانت تلتصق بجسمى المنتفض . كأننى أواجهها لا أعانقها، كأنها شىء لا يُنال قط. فى مكان آخر، فى موقعٍ لا يصل إليه أحد قط . وهى مع ذلك حميمةٌ ومتقدة بالشهوة والمحبة معاً. لم تكن امرأةً، بل كانت مطلق المرأة، تتضرع وتتسلط، تئن وتشكو وتتطلب، خادعة وآمرة لا راد لها. طفلتى وغانيتى الشبقة بالحب .

اشتعلتُ فجأة ، وقذفتُ كما يقذف المشنوق لحظة إطباق الحبل على العنق .

أوقفنى داخل المرآة وقال : ومع كل المعرفة ، فما من عرفان لك قط . لأنك بلا إيمان .

وقال : وجُودُك داخلٌ مخايل . فما من وجود .

قلت : إلا الحب . إلا الحب . إلا الحب . وحده الحب يحمل وَهْم الوجود .

أما هو فقد كان يضرب البالطو ضربات خفيفة بعصاه الأبنوس اللامعة ، على وتيرة منتظمة، مع ظل ابتسامة لا تكاد تُرى . وكان - تقريباً - حانياً وعطوفاً . عيناه ثلجيتان بنظرة مسددة إلىّ باستمرار : ألم تكن تريد الحب ؟

قلت : وأردتُ المعرفة . وأردت العدل . وأردت الحرية .

قال : والصبا المقيم ؟

قلت : كنت موقناً أننى سأموت قبل العشرين .

وقلت : وقبل كل شيء أردتَ الإيمان . عرفته فهل فقدتُه إلى الأبد ؟

قال : السؤال سؤالك . والباب موصد ، بإرادتك .

فلم أجرؤ - وهل ترفعت - أن أقول : لا . الإرادة مطلقة .

ألم يقل شيخنا جلال الدين، «إن غير العاشق وحده، يرى نفسه فى مرآة الماء .»

فى حلم الماء، فى ماء الحلم، صورة الوجود هى استحالة الوجود. الباطنُ وحده هو مُخايَلة المتعيِّن يُحيق به العَدَم . أما العاشقُ الحقُّ فلا يرى فى المرآة إلا الفناء .

قلت : لا وجود عند ظهور هذه السطوة .

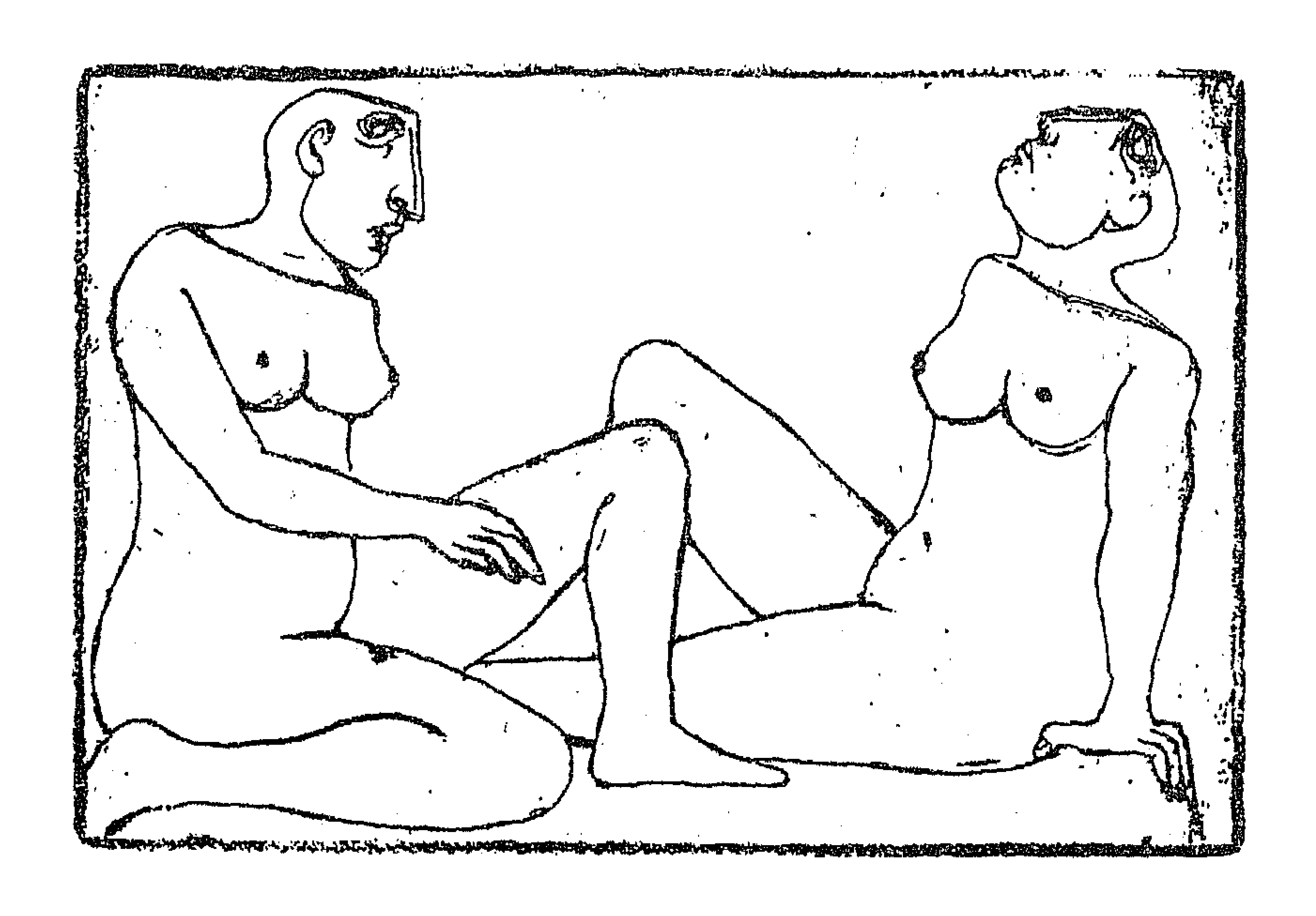
كان جرس الكنيسة يصلصل مليئاً وقوى الرنين ، ويقرع تجويف السماء النحاسى بدقات تُلقى كتلاً صماء تغوص فى روحى وتخبط القاع .

أحسست أن أطراف أصابعى تتوتر وترتعش وكأنما ينطلق منها شَرَر متعاقب لا أراه ، يدى ممدودة حتى آخرها ، هى وحدها ضارعة ، مستقلة عنى، تخترق حاجزاً لا يلين لا يهتز لا ينفتح إلا بمقدار نفاذ أصابعى منه . ثم سقطت الأصابع ، مبتورةً من جذورها ورأيتها بهدوء ، بما يشبه اللامبالاة، تنفصل عنى ، كأنها لم تكن تمتّ لى بصلةٍ ما .

وأحسست المرآة تشطرنى وعرفت أننى أتلاشى ، ولم أكن فزِعاً بل مطمئناً وراضياً ، وقلت : وليس عندى من قول .

١٩٨٩/٧/٢٤

* * *



من غير إجابة

«لَبْسٌ غير محلول»

هذه حكاية خضّبتُها بدمٍ قديم ، هبت عليها أنفاس النار اللافحة مع سكراتِ عشقٍ بائد .

كان موعد درس الرسم يزعجني . الثالثة بعد الظهر تماماً كل يَوْمَيْ اثنين وخميس . كان معنى ذلك أن أخلص بالكاد من مكتب الترجمة وأسلّم على الخواجة ساسون ، وأقطع شارع سعد زغلول صاعداً حتى محل بنيامين فأخطف سندوتشين : فول ، وفلافل . آكل فى الطريق الجانبى الذى تقع على قمته سينما ماجستيك ويحفه السور الطويل الذى لم أعرف قط ما وراءه ، وأنفذ من شارع السلطان حسين ، فالنبى دانيال ، فشارع فؤاد ، وقبل حلوانى «بوردو» أعبر إلى الرصيف المقابل ، وأدخل إلى حارة واسعة قصيرة ، فيها البيت العريض المنخفض .

السلالم خشبية تتأرجح وتئزّ تحت قدمى ، وعليها دائماً تراب خفيف ، واطئة مريحة تدور فى الحوض الكبير المدكوك بالحجر الأبيض الذى نعّمتْه السنوات ، ويغطيه سقف عالٍ زجاجى مثلث الأضلاع وقد بهتت ألوان الألواح الزجاجية وتحولت الصفرة إلى صُهبة فاتحة ، والزرقة إلى بنفسجىٍ كامد ، والضوء يتقطر منها نزرا فيه حمرة مكتومة .

قلت : ألوان الصبا ، ما أشد قتامتها ، وعنفوان نذيرها .

كنا أربعة فى الدرس عند المايسترو أنطونيونى : أنا ، وأحمد عزمى

مدرس الانجليزى فى المدرسة المرقسية الذى مات فى شبابه قبل أن تزدهر موهبته الحوشية ، والأخوان مَرَادُلى : إحسان الذى كان حتى فى تلك الأيام مدوراً سميناً يتسايل شعره على جبينه وضحوكاً مقبلاً على النساء وطِيب الحياة ، وإلهام الذى كان موظفاً بمخازن وزارة المعارف العمومية فى محرم بك، نحيلاً وأمْيل إلى السمرة والتأمل والانطواء .

وكنا نأخذ الدرس فى الصالة الكبيرة التى حولّها المايسترو إلى مرسمٍ ومدرسة ، واسعة ويتدفق النور من شبابيكها الزجاجية العالية المطلة على المنور ، وعلى الجانب الآخر أبواب الغرف الخشبية الضخمة المصاريع ، مغلقة على أسرارها .

وصلت متأخراً يومها، فتح لى أحمد عزمى وأشار لى خفية ألا أفتح فمى.

كان المايسترو يقف على جنب . وبيده عصا طويلة رفيعة يشير بها إلى الموديل العارية .

كانت الموديل تنظر إلى نقطة غير محددة ، وهى واقفة على كرسى حمام منخفض مدور مدهون بالأبيض أمام الشباك العريض ، النهار الخام المصفّى يضىء بوضوحٍ وسطوعٍ جانبها الأيسر ، وأنا داخل ، كلّه ، أما جانبها الآخر فيقع فى نوعٍ من الظل المنوّر المشع ، من انعكاس ضوء الظهر على الحائط الأبيض والأبواب البُنيّة الخشب .

نظر إلىّ المايسترو نظرة صارمة ، وكأنها متواطئة فى وقت معاً ، وأنا أنسلُّ إلى مقعدى المعتاد جنب التليفون الأسود فى ركن الاستوديو ، وأفتح كراسة الرسم العريضة ، وأخرج قلم الفحم ، أحاول أن أشرع فى الدرس .

كانت الصالة حارة .

والمايسترو يمضى فى شرحه ، بالفرنسية الإيطالية اللكنة والعربية المكسورة

معاً ، لعبة النور على تشريح الجسم الأنثوى ، وهو يدفع بالعصا ناحية الموديل، من غير أن ينظر إليها ، دفعات قصيرة عصبية كأنه يوشك أن يخز هذا الجسم أو يخترقه .

أشار إلى ظلال الثديين الصغيرين ، طريين ومتماسكين فى وقت معاً ، وكانت الدائرة التى تحيط بالحلمة واسعة داكنة وفيها هذا التحبيب الدقيق الذى يبدو للعين ، فى النور القوى ، خشناً وسط ملاسة جلد الثديين ، لونهما أفتح قليلاً من السمرة القمحية للجسم كله . كانت سمرتها غضة ناعمة ومطفأة ، كأنها مترية قليلاً .

- بُصّ كويّس Les Seins, ronds,consistants ، موش جامد زى الجوافة ، موش نازل ، موش mous زىّ .. زىّ واهد عجينة .كمان بُـص la qualité des ombres. .. دا بُصّ كويس فيه .. شوف الـ correspon-dance بـيـنـه وبـين الــ pelvis شـوف الـ volume بتاعو عايزين الـsculpture بتاعو مش بس الألوان .

وكان كلامه عن النسَب ، وعظام الحوض غير واضح لى تماماً ، وهو يطعن بعصاه منطقة الظلال الغامضة تحت البطن . كان ردفاها المكتنزان يبدوان كأنهما أثقل مما تحمل الساقان الطويلتان . وكانت نحيلة ولكن بهذا النحول الزائف لأن الجسم ملفوف وكامل التدوير .

قلت : لاتزيد عن ثمانية عشرة ، أو عشرين ، بالكثير . أنثويتها واضحة. قلت : هذه ليست بنتاً بل امرأة حقاً ، تشهد عليها تقاطيع الجسم الناضجة ، ونظرة العينين الخبيرة ، الغائبة الاهتمام مع ذلك .

ما الذى يحجبنى ؟

صفاء الرؤية يعوقها ضَرَبان الدم فى عروقى .

كانت مع كل نِسْوِيّتها تَلطُف عن أن أنقل لها خيالاً ، بالقلم الفحم ، على ورق الرسم الأبيض .

قلت : هذا الجسم قادرٌ على حنان كبير ، وعلى هوس العشق ، وتلهّبه .

وكان هذا صحيحاً .

كنت ، دون أن أعرف ، قد أبَحْتُ له مجالى روحى ، كلها .

مصادر الحب صامتة .

كان بطنها هضيماً ، وفيه من على الجنبِ ندبة عملية قيصرية واضحة لكنها بشكلٍ ما تزيد استدارته حَبْكاً ووَثاقة ، وفيه الخطوط البيضاء الباهتة التى تأتى بعد الحمل ، مع انخفاض البطن عند الولادة ، والدكنة الكامدة عند التقاء الفخذين المسحوبتين الملفوفتين ، وتماسّهما ، وتبدو شِعْرتها محلوقة جيداً أو منتوفة بالحلاوة ، بعناية ، لونها أكثر بياضاً من لون البطن ، وربوة الفرج مليئة ومرتفعة .

كان جو الاستوديو كله فى ذلك الظهر الأول حميماً وبيتياً جداً . فُتِح باب غرفةٍ لِحَتِها واسعة ومزدحمة بالسرير والمرايا والشِلت ، وخرجت امرأة انطونيونى ، فارعة الطول وجسيمة وملفوفة فى روب أسود عليه نقوش ورودٍ حمراء صينية متوحشة التطريز ، ومرقت بجانبى داخلة إلى الحمام الذى أعرف أنه طويل وحيطانه مبلّطة بالقاشانى حتى السقف وفيه بانيو هائل له أقدام لبؤة من النحاس الأصفر المسودّ مفلطحة وناتئة المخالب .

قلت : لاتَرُدّ هواك ، لا تَنْأَ بجانبك عنه . ولو لم تعرفه .

قلت : ليس للهوى من سببٍ ينطق به .

قلت : حبى فى دخيلتى يحتج لكِ علىّ ، ويحكم لكِ علىّ .

كانت وداد تعمل لى فنجان قهوة، على السبرتاية، فى غرفتها، وكانت

رائحة السمك تصل إليّ من النافذة الوحيدة الموارية الخشب التى تقع مباشرة فوق السرير بأعمدته الأربعة السوداء. كانت تعطى لى ظهرها وهى أمام مائدة المطبخ المكسوة بورق جرائد مقصوص على أشكال هندسية الأطراف ، وعليها الحلل، ووابور الجاز، وفوقها المطبقية الخشب ورفّ عليه الأكواب والفناجين، مرصوصة على نفس ورق الجرائد بنفس القصقصة الهندسية بمثلثات ودوائر مفرغة .

كنت جالساً على الكنبة الصُلبة المرتبة ، وأمها العجوز جالسة على الأرض، جسمها كتل مكوّمة وكانت لا تكاد تُرَى ، وتحكى لى عن تعبها فى مستشفى الملك فؤاد لعلاج عينيها . أما الرضيع فقد كان نائماً على السرير ، تحت النافذة ، أطرافه رفيعة وهشة .

جلست وداد على الأرض ، تحت قدميّ ، بجانب أمها :

- ياخويا أهى عيشة وآخرتها التُربة . قَطيعة تِقطع دى عيشة وسنينها . يعنى جالنا إيه من دى العيشة الهباب ؟ طب دَخْنا من ساعة ما عرفنا جوزى مقصوف الرقبة واحنا ما شفناش ساعة راحة ، وآخرِة المتَمّة تقولشى الأرض اتخسفت به . ولا نعرفوا له ريحة جُرَّة . قال إيه اللى رماك على المرّ قال اللى أمرّ منه . دا برضوا لحم الواحدة عزيز عليها . بس حنعملوا إيه ؟ أهِى قسمة ونصيب . يارب توب علينا بقى يارب . ياخويا دى الواحدة طهقت م النيلة اللى احنا فيها . آه ياغلبى يامرارى .

كان صوتها عميقاً ومشروخاً قليلاً

- عاديك ياخويا ، آل عين ما شافت قلب ما شال ، أنا فى عرضك ياخويا ، أبوس رجلك ، استرْ علىّ ، ما تسيبنيش . دى الدرْوة حلوة ..

كان فى صوتها الآن ، وفى نظرة عينيها المرفوعتين إلىّ، قهرٌ كامل، وطمع مفهوم، ومبرَّر . وكانت محاجّتى لنفسى فى ذلك غير مجدية، وأنانية أيضاً.

وكم ندمت بعد ذلك على أننى تركت لها الشكوى وضراعتها لم أسمعها.

اللبؤة أنثوية الجلسة تحت قدمَى ، شعرها الأكرت ملموم بشريط أزرق ، وعيناها مفترستان الآن ، الهَولة طفليّة وأمّ الوجود ، وديعة خاضعة وكامنة الضراوة ، وحشيتها محسوسة ، ناعمة ومطلوبة . وكانت ترضع الولد من ثدي طريّ غير متهدل ، تضغط عليه بيد رفيقة ومثيرة . أعرفه لأننى رسمته بالفحم وبالزيت وبكل الألوان ، داعبته وتحسسته ووزنته وعركته بيدى ، ولعقت بلله استطعمت حلاوته .

لا . لم أكن لأختار الخيال الخالص المصفّى من شَعَث اللحم والدم . لم أكن لأريد الموسيقى البحتةْ . ما الموسيقى؟ كنت أوثِر حنانَ القلب، وعنفَ شراسته.

كانت أمها راقدة على الأرض ، وكان الصغير ينام بين أمه وبين الجدار ، وكان السرير يحملنا إلى محبات وشهوات لُجّية لا شاطئ لها . وعرامة الصبا المحرِقة لا تخبو حتى فى حضور المحارم والجسد سكران بوجدٍ غير عاقل . أما الرثاثة فقد كانت تتلاشى ، لا توجد ، لم تكن موجودة ، أصلاً ، أمام جمالٍ خاص ، وحرارةٍ مدمرة .

فى هذا الدنّ كانت خمر حنوها عتيقة، وجديدة علىّ، معاً . لاذعة الطعم وسلسة .

وكان حنوها معى – وطَمَعها – لا مقياس لهما .

كنت أطلب رقم التليفون ، ويأتينى الرنين المتصل، فى الليل ، من غير إجابة وكان اليأس يحيط بليلى ولكننى لا أنى أطلب الرقم، بإصرار ، باستمرار. فجأة ردت علىّ امرأة، كانت شجية الصوت وفيه بحة وخشونة أنثوية ، نافدة الصبر، وسألتنى، بالفرنسية : من أنا ، ماذا أريد ؟ لم أعرف أن أرد . لم أعرف . فسألتُ : ما الرقم الذى تطلب؟ من أنتَ؟ نسيت الرقم. حاولت أن أتذكر . لم أستطع أن أعرف . لم أردّ . سمعتها تقول بالفرنسية :

يا إلهى . يا إلهى . ثم عاد الرنينُ المتصل . كأن لم يكن هناك قط رد . ولن يكون .

قلت أعطِ يدكَ من يشهتّك فى سقوطك ، وينجّيك من هُلْكك ، ويخلّصك من أوهامك .

قلت : مَنْ ؟ يدى مخلودة .

قلت : هَتْكُ الأستار . مجانَبَةُ الأسرار .

قلت : الهوَى هُلْكٌ ووهْمٌ وسقوط ؟

لم أعرف إلا يوم الاثنين التالى .

قال لى إحسان مَرَادلى إن الإسعاف نقلتها يوم الجمعة إلى المستشفى الميرى على النَفَس الأخير . قال إن وابور الجاز هبّ فيها ، وأمسكت بها النار، وإن أمها لم تصرخ إلا بعد فوات أوان النجدة . قال هل تعرف أن لها ابناً صغيراً لا أحد يعرف ماذا يفعلون به ؟ وأن البوليس يبحث عن زوجها ، فى قضية آداب ، وأنه هارب من شهور ؟

سألته بلهفةٍ ، وشكٍ كيف عرف ، قال : هكذا ، بالصدفة ، كنت أمر عليها فى غرفتها فى رأس التين .

فلم أعنَ بتحقيق حكايته .

كانت الغرفة الضيقة مشتعلةً بجسمها . كنت أعرف أنها هى التى أقدمت على النار .

كيف أمكن أنها طيَّبتْ للنار جسمَها ؟

كيف احتملت أن تخلع عنها ، نهائياً ، كلّ أوصافها ، وكل لَبْسٍ فيها ؟

فوران السرّ من حرقةِ قَهْر أم من ضيقةِ مأزق ؟

قلت : أى ثقلٍ من الجريمة كان فى طاقتها أن تحمله ، عاقبت نفسها عليه. العقاب الأخير . كيف أقدمت عليه ؟ هذه القسوة التى لا تطاق ، الحرق والتشويه ، بلا رجعة . أحَدٌ الانتقام الكامل من الذات ؟ تعذيبٌ طقوسِيٌّ لا تردد فيه ، تصميمٌ لا أفهم مدى صرامته ، والنار ترعى لحمها .

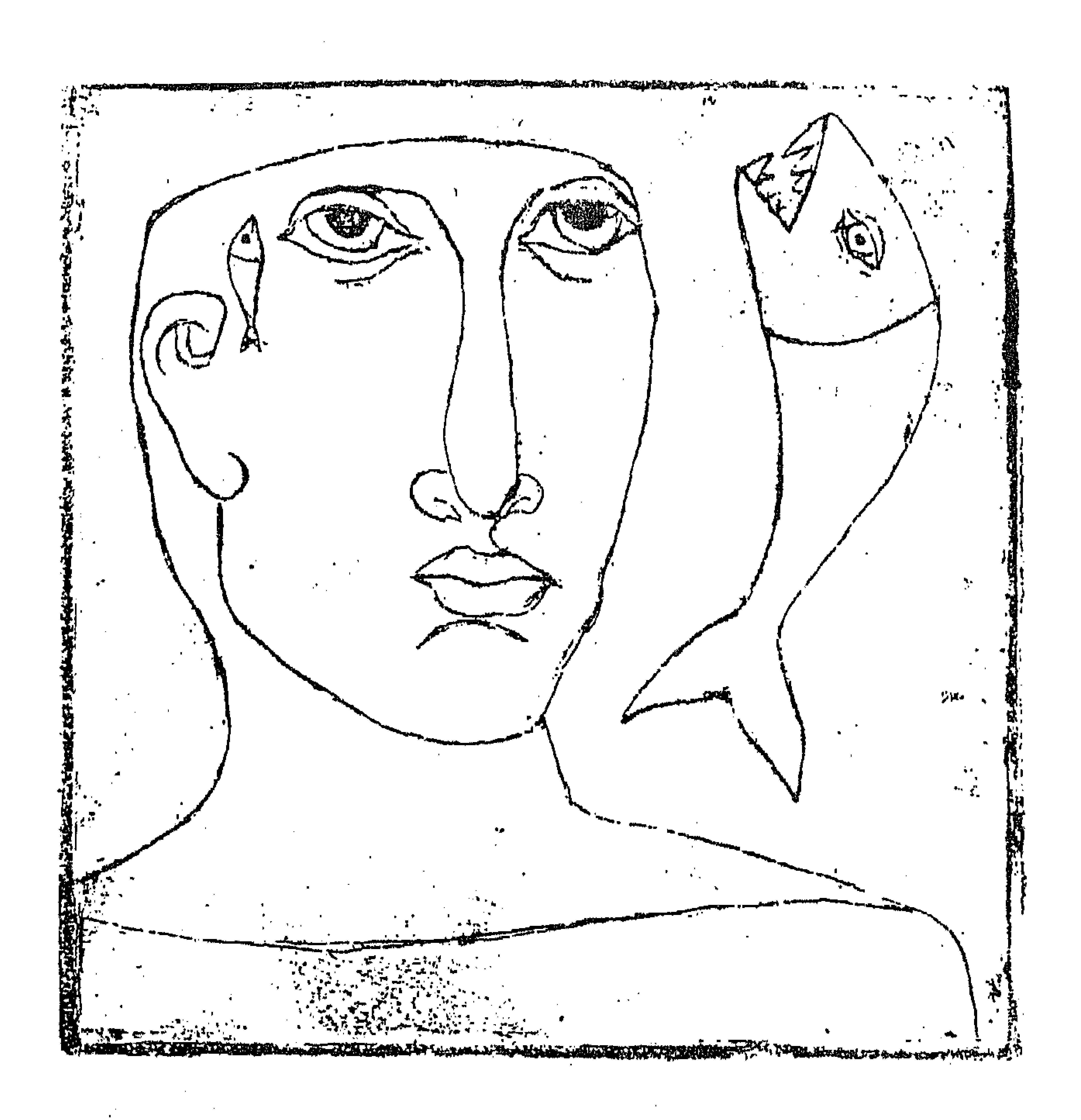
إدانةٌ لا تُنْقَض ولا تُرد .

لماذا ؟ لماذا ؟

السؤال قوته لا تُحتَمل .

١٩٨٩/٧/٢٩

* * *



مخلوقات ملكة عبد الملاك

«الحلم حقيقةٌ ممكنة»

كان طريق المعادى على النيل يبدو موحشاً ، فى أول المساء .

النخل السامق الرشيق مائل على الرصيف وجدائل سَعَفه تنوس تحت جدران البيوت ، دغلات الأشجار متكاتفة تحت سماءٍ عميقة الزرقة ، فيها بقية ضوء النهار ، وسحاب ينزلق ببطء .

أضواء النيون تنعكس من اجزاخانة وعيون مصابيح الطريق بيضاء مسدودة يقع نورها الذى لا يفيد أحداً على كشك سجاير وكتب ومجلات به لمبة جاز .

السيارات تنساب على الإسفلت وثيرة صامتة .

كانت الأصوات غير واضحة ولكنها مقلقة تتجاوب من بعيد ، والطيور الصُلبة تنتقل من شجرة إلى أخرى ، محددةً قاطعة الجسوم ، بلا صوت . وكانت سيقان النخل السلطانى وسيقان النساء بيضاء ، دافئة ، موحية .

أمامى النيل واسع ومنخفض وغامض .

رأيت الجزيرة فى وسط المجرى العريض ، عليها أعشاب وطحالب ملحية الشكل ، حولها المياه الساكنة مخضرة قليلاً . شُطوط الجزيرة المتعرجة تغرق وتطفو من بركة النيل الهادئة السطح .

تأتينى فجأة ، من بعيد ، طلقات المدافع ، دقاتها ضخمة مجوفة الرنين

تقرع القلب ، تتلوها رَشّات متلاحقة من رصاص الآليات الحادة . والسماء المغطاة الآن بغيام رمادي ، تقطعها سطوعاتٌ منشعبة حمراء وخضراء من قنابل الاستكشاف الضوئية الصامتة الاشتعال ، تظل متوقدةً لحظات وتنطفئ ببطء .

كان يجرى على الطريق . جلبابه الأبيض القصير يضربه هواء الجرى على منتصف ساقيه ، وقد شهر مسدسه السميك منطفئ اللون على امتداد ذراعه ، ولحيته طويلة قاتمة السواد هائشة حول وجهه الأبيض السمين . مرَّ أمامى مباشرة ، رأيت أنه قد حفَّ شاربَه . أثَرُ زرقة الحلاقة الوثيقة حول فمه .

سقط بوجهه على بُعد خطوات ، دون أدنى حركة أو صرخة ، على حشائش الرصيف التى كانت قد توحشت وطالت تحت شجرة التين البنغالى الجسيمة ، الهائلة .

كانت سيارة تاكسى واقفة وخالية تحت مظلةٍ واسعة منخفضة مصنوعة من القش البنى الباهت ، والمحرك يدور ويئز بانتظام .

فى عتمة أول المساء رأيت هذه المخلوقات الشمعية ، مائلة على جنبها ، ثابتة الجوارح ، تطير تحت السحاب الذى بدأ يشف الآن من نور القمر المقطوع، تحملها ريح خفيفة . ومن بينها فينوس ، حية ، صغيرة القد ، ينبض جسدها. شمعية التقاطيع وجهها أعرفه ، وأحبه ، كم لثمته ، كم سقطت عليه دموعي، وقطرات مَنِييَ .

كانت بالضبط تشبه التمثال لكنها لدنة القوام . ضوءٌ كاوٍ ، كأنه برق الفلاش من كاميرا ضخمة غير مرئية ، وقع عليها وانثال على جانب وجهها ، وظل ساطعاً. أحرق الضوء جانباً من شعرها المعقوص الملفوف بعناية ، وبدأ وجهها يذوب ، وقطرات الشمع الثقيلة تسقط بينما الريح ما زالت ترتفع بها بهدوء وفى عينيها نظرة غائبة .

رائحةً من الوجد ، وحُرْقته .

طاحت تلك الإشارات . أفلتت من يدى .

بلبلةٌ لما كان قد سَكَن من طائر الأشواق .

هاجت الآن روحى . ما من مثابٍ أبداً لهذا القلق . لا تخبو خَدَمة نارِ النزوع ، بلا منال .

والحلم صامت . مكنون .

انقضّ علىّ . طائر داكن الخضرة كبير الجناحين ينزل إلىّ من علٍ ، ريشه كريش ببغاء هائل ، أعرف أنه عاقل وأنه ناطق وأنه مُدركى . ولكن الخَرَس مقامه . ومقامى .

ثم لَبد أمامى معلقاً من مخالبه القوية المسننة ومشبوحاً تحت الشجرة الضخمة ، مُدَلّى بجانب الجذور الخشبية النازلة من بين حرشة الأغصان الأثيثة، صُلبةٌ تتلوى حول بعضها بعضاً لم تصل للأرض بعد ، وقويةٌ متينة العضل وصلت إلى التربة الأم ونفذت من الجثة البيضاء الراقدة على وجهها منذ زمان بعيد أعرف أنها دافئة ما تزال .

كان الطير الكبير قائماً فى نور القمر الذى تَبَدّد الآن وراء سحاب أبيض مقطوع ينزع لونه إلى الرمادى الفاتح . وكان مقلوباً ورأسه ساقط إلى تحت كخفاش ضخم له منقار طويل معقوف الحافة ، حاد الطرف .

وكانت رئتاه متدلّيتيْن ، من صدره المفتوح ، بجانب جسمه الساكن ملموم الريش ، تنبضان ، لونهما داكن وغشاؤهما لامع وأملس ، والقلب يضخ بينهما ، مكشوفاً فى الهواء ، صغيراً يشكل لا فت للنظر وغريب .

كان مستكناً ومتربصاً فى وسط خضرة الأغصان المتراكبة المنبعجة المفاصل، والأوراق الملساء الجرداء ، وكريّات الثمار الصغيرة الحمراء القرمزية

المتورمة بعصارتها .

ورأيت أن منقاره يضرب بانتظام وإصرار فى يد مَلَكَة عبد الملاك ، كفّها مفتوحة ومنبسطة . كأنه يأكل من يدها ، وهى تنظر إليه ، لا تضن بشىء .

كنت أعرف مَلَكَة عبد الملاك ، من المطبعة .

كانت تحفظ أقراص الرصاص وهى ما زالت ساخنة ذائبة تقريباً . حتى تجمد، تضعها فى خزانة مفتوحة لها أرفف متقاطعة . الحروف البارزة ، المعكوسة على سبائك الرصاص فيها السجل الكامل لكل شىء ، كأنها اللوح المحفوظ ، وكانت مَلَكَة عبد الملاك ، دائماً ، تحيط بها ، حيثما كانت ، بقايا رصاص المطبعة وشظياته الرفيعة المشطوفة بيضاء البطن ، وحولها شمع الفوتوتيب الملفوف فى اسطوانات كبيرة مسنودة إلى حيطان المطبعة وإلى خزانة الأرفف الخشبية وإلى جوانب ماكينات اللينوتيب العملاقة ، المتحركة التروس والصفوف .

كانت بشرتها زيتية ناعمة ، وشعرها ، فى وسط تشابك المطبعة وازدحامه، طويل وقوىّ حالك السواد . وعندما تتكلم تحرك رأسها فيهتز شعرها كأنما تهب به أنفاس لافحة ، وينزل بكتله الناعمة على كتفيها ثم يرتفع ، له حفيف مسموع .

وكنت أذهب إليها كلما اضطررت إلى البحث عن إعلانات قديمة ، أو بطاقات معلومات بائدة، أو تفاصيل الاحتفالات بمناسبات منسية .

كانت مَلَكَة عبد الملاك قمحية اللون وبضّة ، مليئة كالموج ، وجهها المدور كامل الاستدارة ودائم التقلب ، له أشكال متغيرة فى نور المطبعة الشحيح أو المتوهج .

ومع جسدها الطيع ، المنيع ، كان حنوها علىّ راسخاً .

وكنت أرى صدرها قادراً وشامخاً ، والثديين فى السوتيان المحبوك ، يعطيان حساً بالنضج الراضى المرتاح .

قالت لى : أنت المتقلب الذى تطير به الأهواء والأشياء . أما أنا - كما ترى - فإنى ثابتة . سوف تجدنى دائماً . هنا .

وسوف تقول لى : أنا ، فى أى مكان ، فى أى وقت ، لك ، ملكك . فهل يمكن أن تقول لى «تعالى» ولا أجىء؟

أين ملاكى الغَضوب شاهر السيف على مخلوقات الشوق .

أحسست الريح تشتد قليلاً ، وضوء القمر يغلب السحاب .

رست ، أمامى مباشرة على الكورنيش ، آخر مركب طالعة ، إما أن ألحق بها أو أن يضيع كل شىء .

نزلتُ بسرعة على سلالم مزدوجة متقابلة ، صاعدة وهابطة ، وشيشُ الكهرباء مسموع وقوتها محسوسة ، وكان الناس كثيرين حولى والأنوار من سقف النفق متتابعة ومحددة ومجسمة ، وكان النفق يدخل بى ويغوص فى قلب صخر الجبل ، منيراً جداً ومدوراً ولامع الجدران ، ثم وجدت أن السلالم المتحركة قد خرجت بى إلى النيل ، والنفق ما زال يغوص ، يشق الموج الذى أحسسته يرتطم بالجدران الناصعة المبلطة ، ارتطاماً هيّناً .

لكن المركب ما زالت بعيدة ، ومهما جهدت فى الجرى صاعداً ونازلاً على الدرجات الحديدية المضلّعة أجد نفسى ما زلت أراوح الخطو فى موقعى .

مشتاقٌ على الدوام ، من غير أشواق .

حبى طلب دائم ، ومخافةُ انقطاع . بلا هوادة .

والقلب جزيرة محاصرة .

فرغت من الحنين إلى الصبوات . فرغت من التبرم شوقاً بارحْتُ أشجان الصبابة والحنان . بارَحْتُها .

دورة كاملة . أخرج من دَرَج النفق المتحرك لأجد نفسى ما زلت تحت شجرة التين البنغالى ، فى متناول منقار الطائر الأخضر الضخم .

وقد اختفت مَلَكَة عبد الملاك .

بادرتُ بأن أسلمت لطائرِ المستحيل نفسى ، دون مطالبة ، دون لجج . وليس هذا كسبى ولا دأبى .

مدّ إلىّ منقاره . وأخذنى . أطير معه . فى باطنى ، فى باطنه . معراجى عَبْر عَصْفِ السماوات العُلَى .

حتى عشى بصرى الضوءُ الباهر الذى لا مثيل له . كانت قناديل الزيت السماوى مشعة كوجوه الملائكة ، ولا حصر لها ، تملأ السماء والأرض وما بينهما ، ساطعةً من الأزل .

هكذا يأوى العاشق إلى ما بين قدمى العرش الوهاج .

احترق قلبى بالنور ، وكان جانبه الأيمن يسقط عنى ، مصهوراً .

النور ظلمةٌ تكتنف الروح ، كاملة ، بلا رحمة .

وليس هناك إلا مخلوقات الأشواق ، متجسمة ، تطير حوالىّ ، تذوب وتتجدد بلا انقطاع ، تملأ الداخلَ والخارج ، وحدها .

١٩٨٩/٨/٤

* * *



بيت قديم

«الزمان خيالات مقطوعة»

مازلت أرانى أسير فى الصباح الباكر الساكن ، تحت سماء لؤلؤية ، إلى البيت القديم .

أسير إليه ، وأنا أحمل فى داخلى شوقاً مُمِضاً وعميقاً وحِساً بانتماء لا ينفصم إلى هذا البيت ، ولوعة لفقدانه .

أعرف أننى لن أسير إليه أبداً . لن أدخله مرة أخرى ، أبداً .

خطواتى - فى هدوء الحوش ، بعد أن أغلق خلفى باب الشارع الكبير ، تحت الجميزة العتيقة - لن تحدث .

أخطوها ، مع ذلك ، على الدوام ، من غير وصول .

أعبر عتبة الباب الرخامية ، حافتها الناعمة غاصت فى الأرض ، عليها نقوش كتابات هيروغليفية كادت تّمحِى ، ماثلة مع ذلك تستجلب البركة تستصرخ الذكَر .

أعرف أنه على هذه العتبة الخفية مرّ من قبلى بيبى مارتان ومحمد ناجى، راغب عياد وكامل التلمسانى ، چورج حنين ورمسيس يونان ، موسكاتيلى وسَنَد بسطا ، كاترين سُرْسُق وبولا العلايلى ، وغيرهم ممن لا اسم لهم ، هؤلاء الذين عذبتهم أرواحهم وطوّحت بجسومهم النزوات والمعاشق ، ومفازع مجرد الوجود ، وأنه هنا حُسمت مصائر أو عُلّقت إلى الأبد دون قرار ، رُسمت أقدار وتجسدت شطحات شِعْر هذا البلد .

لكن الحوش كانَ دائماً خالياً ، من غير وحشة ، مكنوناً داخل الحيطان السميكة السامقة ، بأحجارها التى تضرب إلى الرمادى الفاتح ، لون قديم ،

نظيف . تظلله أشجار كافور وجزورينا عفية وارفة ، تنفى عنه فجأة كل ضجة القاهرة ، وتضفى عليه سكوناً ، وسلاماً لم أجده فى أى مكان آخر ، ربما لأنه كان يُعدِنُى لمحبةٍ ، ورضى ، لم أجدهما فى أى مكان آخر .

أحجار السلالم العالية الدرجات ، محصورة بين حائطين فى بئر السلم الضيقة ، تبشّرنى ، كأننى أسمع من ورائها طنين حياة مليئة بالقوة والوعود .

وعندما ينفتح الباب المحكم الوثاق ، أخيراً ، تهب علىّ أنفاس البيت الهادئ حميمةً وصافية .

ما زال أعز مواقعى .

أعود إليه - وإليها - بلا انقطاع . وكأنها لم تبارحه قط ، ولم أبارحها . كل الدراما ، كل الحب ، كل النشوات ، كل سكرات الجسد وكل أمجاد الروح، مازالت ، كلها ، فعّالة .

نادانى قلبى إليك ، لبّيته لما نادانى ...

وهل تصورتِ لحظة أنه قد يمر يوم من غير اهتزاز الحنين ، والحنان ؟

أى يوم ؟

نداء البيت القديم ، نداء القلب القديم .

فى القاعة الوسطانية الفسيحة ، حجر حيطانها ما زال ببياض لحمه المبْرِىّ، دون طلاء ، ودون ملاط ، أرى لوحات السجاجيد المعلقة على الحائط، منسوجةً بالخط الفارسى والكوفى ، تنطق بأشعار الحب والآيات ، تهزها نسمات غير محسوسة فتنوس برفق على جسم الحيطان . الفوانيس العربى النحاس يتقطر منها ضوء المصابيح الكهربائية الصغيرة بيضاء الشموع عبر ألواح الزجاج الأصفر السداسية الشكل . يسيل هذا الضوء بمياهه الساجية ما زالت حتى الآن دافئة مثيرة تجعلنى أنتصب فجأة ، أنزل معها إلى السجاجيد العميقة الوبَرة المفروشة على بلاطات الرخام ، طالما صنعنا الحب فيها ، وتقلبنا فى قبضة جنونه وعربدة سكراته ، بينما نافذة المشربية العريضة تعطينا جمال

العالم ، ونوره ، وتحجب ضراوته .

قلت : لا شيء ، لا الزمن ، لا النسيان ، لا الجسم الذى يناله الوهن بقادر على أن يأخذ ذلك الذى حدث . إنه باق ، أبداً .

قالت : ياليت ! هذا مجرد تقرير رومانسى . الزمن يمحو كل شيء كيف نصون حبنا من سطوة الزمن .

قلت : أبداً لن يمضى . ليس فقط لأنه موضع إعزاز خاص ، بل لأنه يقوم فى الروح ، باستمرار ، من جديد .

قالت : كم من أشياء تحدث ، ثم تؤخذ فى قبضة الانتزاع ، تذهب كأنها لم تحدث قط . فلماذا يستعصى ذلك وحده على المضىّ ، والغيبة .

قلت : لأنه - مهما تقطعت أمشاجه - يحيا دائماً من جديد ويُحيى دائماً من جديد .

فتحتُ الباب بمفاتيحها ، ودخلت . أحسست البيت مستوحشاً ، وكانت ظلمته فادحة . قلت : «لا بأس . سوف تعود بعد قليل» . كنت فى المدخل الذي أعرف أنه يفتح على القاعة الوسطانية، ويفضى من اليسار إلى غرفة النوم . الأنوار فجأة لا تضيء . حس الوحشة يعضّ قلبى ، موجعاً ، لا يبرأ ، أبحث عن أزرار النور ، لا أجدها ، لا أجد شيئاً . كل شيء ينكرنى . أسير خطوتين ، لا أرى أمامى ، ذراعاى ممدودتان ، ومع أن الظلمة مطبقة أغمض عينى ، كأننى بإرادتى أنفى الظلمة . أين أزرار النور ؟ هل هى فاسدة نالها العطب ، ثمار عطنة تحللت وسقطت ؟ أين هى ؟

أحس نفسى أشهق ، وقعت يدى أخيراً على زر النور الذى يشبه اسطوانة صغيرة جداً من النوع القديم الذى تضغطه إلى الداخل . النور فى الفوانيس الكبيرة يشتعل ، على غير انتظار ، يعطى بصيصاً ضئيلاً مُصْفَرّاً ، يهتز ، ويخفت ثم ينطفئ نهائياً بصوت كأن فيه صدمة خبطة واحدة أخيرة .

أجد الهواء يندفع إلىّ، من أين؟ من النافذة، من الباب، من السقف؟ لا

أعرف. الجاكتة تهتز، تتطوح حولى، وترتفع تحت هبوب الهواء المتضارب التيارات، كأنما بفعل أيدٍ غير ملموسة. هُنا قوى حية، وغاضبة، قد خلت لها الساحة، حضورها لا يُرَدّ، وعَمَلُها لا يُفضّ، ولفْح أنفاسها فيه نيّة غير معروفة .

أرى فى الظلمة المتقلبة حولى شيئاً أبيض ، غريباً ، أحسه أثقل قليلاً من الضباب وأخف قواماً من سحابة ، بارد الملمس ، ينحنى علىّ ، ويَلُفّنى .

أنادى بكل طاقاتى . كأنما ندائى ترتجٌّ له السماء والأرض .

لا ينِدُّ عنى صوت .

شفتاكِ . شفتاكِ فى الزمن الآخر ، تبدآن باردتين رطبتين ، ملمسهما مُنعش وطرِى . ثم ينالهما - معى - هوس العشق . فيهما ، تحت شفتىّ ، كلّ حياتهما الخاصة ، كل حياتهما المستقلة ، كل التنزى والتقلب كل الحب كل الهوَج والتلمس ، كل التلاصق رقيقاً وملهوفاً ريانا وجوَاساً ، وادعاً ومعابثاً، شرساً وراضياً وناعماً ، مستفزاً داعياً ومستسلماً .

لماذا ياحبيبتى لم أعرف هذه الحياة وتلك الحرارة فى شفتيك ، عند حلول الزمن الأخير ؟

بينما أنت فى حضنى قد اختُزِل الكونُ فيك ، والزمان .

رسالة شوقٍ فى زجاجةٍ مختومة مرمىٌّ بها فى اليَمّ ، هل ترتفع بها الأمواج وتنخفض بلا انتهاء ، غير مفضوضة ، لا تعود ، أبداً ، بردّ ؟

وكالمعتاد تظل الأشواق صَمُوتاً . من جانب أو من آخر ؟

كلُّ الكلام أبداً بدون كلمات .

جسم البيت القديم ، جسم الحب القديم يحيط بى من كل جانب ، وعيون الحب النجلاء تهاجمنى وتطعننى لا تطرف لا تتوقف .

كان رخام جسدك الحمْرىّ الحار ، فى سمرة الغروب ، معجوناً بالحب والألم الذى لا يريم . جماله قهرىٌّ شامخ ، وما أطوعه بين ذراعىّ ، ما أنعم لدونته .

قلت لى : وقائع الحياة ليست فى شِعرها . الشعر فى النهاية لا يقين فيه . ولا اطمئنان له .

بصوتك المدرَّب المتقَن ، وثيراً سلساً ومشحوناً بطاقة جنسية سيالة .

قلتُ لك : هو كل اليقين . ما دامت الحياة - كل الحياة - سؤالاً ليس له من مجيب .

وأنا على مشارف الحافة ، فى صباح النهاية الذى لا يَحُول نوره الغريب، ما زلت أقول : لماذا سار كل شىء على هذا النحو ؟ لماذا ؟

مازلت أريدك . وحدك أريدك .فى الشعر ليس فى ركام الوقائع . كأن الشعر هو الواقع الوحيد عندى . فهل استئثارى بك فيه ، أنانية ، ولَجج الطفولة ؟ أم هو بذل نهائى لا يمكن أن يَنْتَقِض ولا أن ينقضّ . مازال الحب يفيض من قلبى ، كالنزيف . أيظل يسقط على تراب هذه العتبة المدفونة فى الأرض ؟ أين زهرة الدم الحمراء وحشية الحمرة المتوقدة بالشوق ؟

كانت القبة الضخمة أمامنا ، ماثلةً عبر المشربية ، اسودت بفعل الزمن ، تدور بها كتابات بارزة من الحجر لا نعرف كيف نقرأها ، بيننا وبينها سطوح بيوت القاهرة القديمة متراكبة متمايلة ، تقطعها فتحات المناور المسقوفة بزجاج مترب ، رُكنتْ فيها عِمْدان خشب بالية وصفائح صدئة وبقايا دراجات وصناديق وكراتين وأقفاص وقفف منبعجة بالكراكيب ، كل مهملات الحياة جففتها الشمس وصوّحتها ونظفتها من كل لحمها وسوراته ، أعشاش الحمام الخشبية يصدر عنها هذا الهديل العميق ، حزنه رتيب ممل ، مستمراً وعنيداً لا يسلّم بنهاية أى شىء .

كان هذا يقينى .

قلتُ : من بين المفازع الكثيرة التى يغصّ بها العمر المضطرب - على الرغم مما يبدو على سطحه من رتابة وتَمَكُّن - يأخذنى رعبُ أننى لن ألتقى بكِ مرة أخرى ، أبداً .

قالت : حسب الشائع المشهور نحن لا نلتقى مرتين أبداً . العودة حلم مستحيل بطبيعته . كل لقاء نسيج وحده له طعمه الخاص ، حلواً أو مراً ، وله مقوماته وحده .

قلت : لا ، هذا الرعب يقول لى : «لا ، ليس هذا . لن تلتقى بها أبداً ، بالفعل . أبداً بعد» . وعندئذ يُفقدنى الهلع كل صواب . وأريد أن أصرخ بأعلى صوتى : لا . لا . لأ .

قالت : اسم الله عليك من الرعب والهلع . إذا أردت أن تصرخ اصرخ ياحبيبى ، لكن ليس من الرعب والهلع .

فضحكتُ من نفسى ، على نفسى ، كالمعتاد .

قلت : ومن المفازع القديمة الأخرى أنكِ لم تعودى تعرفيننى ، لم تعرفينى قط . ولا يهمك هذا على أى حال .

قالت : وهْمُ التثبيت . وهْم العودة الدائمة . لابد أن تكسر الدائرة .

قلت : ومن ثم أعود إلى كلمةٍ قديمة لك - هل قلتُ لك أننى الآن أكنزها وأحرِزُها ، هذه الكلمات - الماسات التى لك ، لأنها وهّاجة وقاطعة معاً ؟ - عندما قلتِ لى : « إننى أحبك . سأظل دائماً أحبك» أما أنا فليست بضاعتى كلها إلا كلمات .

قالت : أنت طالما ... طالما رددت حتى حد الهوس إن الكلمات لا تعنى شيئاً وحدها . أنا أيضاً قلت هذا كثيرا . لكنه غيرحقيقى .

قلت : أحقٌ أننى لم أقدِّم إليك إلا شعراً ؟

قالت : وهل الشعر قليل ؟

قلت : أما أنتِ فقد وهبتنى سطوع المجد ، ورهبته .وقْدةَ الحب الذى لا يطاق ، وسَوْرته . مازلت أتوجس حتى من الاقتراب بالذكرى من نور هذا المجد، لأننى أعرف أنه لا يُطاق .

كيف احتملت فى البيت القديم عبء كل تلك السعادة ؟

وكيف أستمر فى احتماله ؟

ما جدوى الكلمات ما جدوى الكلمات ما جدوى الكلمات أريدك فى حضنى أريد أن أعرف حبك أريد أن أعود إليه أريد أن أبدأه من جديد كما لم يبدأ قط أريد جسدَ الموسيقى لحنَها المليء لا صداها ولا ظلها البعيد .

قلتُ : سوف يأتى الصمت وشيكا . قريباً جداً .

سوف ينقضى زمان الكلام .

كنت أهمّ بأن آوى إلى سريرنا الفسيح ، تحت لوحة النسيج الكثيف الذى يصيح فيها الديك الأحمر الخيوط ، مشتعلاً ، يفتح منقاره الكبير رافعاً رأسه بلا صوت ، لا يعطى نفسه راحة . كانت قد سبقتْنى . كنت أعرف أنها تَضَت الآن فستانها الأحمر الحرير المنقوش بالأبيض ، وأنها تخلع السوتيان البيج الصغير الذى يفيض ثدياها على جوانبه ، بشريطه المطاطى اللدن الذى يحبك ظهرها البديع المكين ، جسمها السامق اللين المطواع حُرٌّ الآن ، صدمة جماله عندى ، فى كل مرة ، جديدة تخطف أنفاسى .

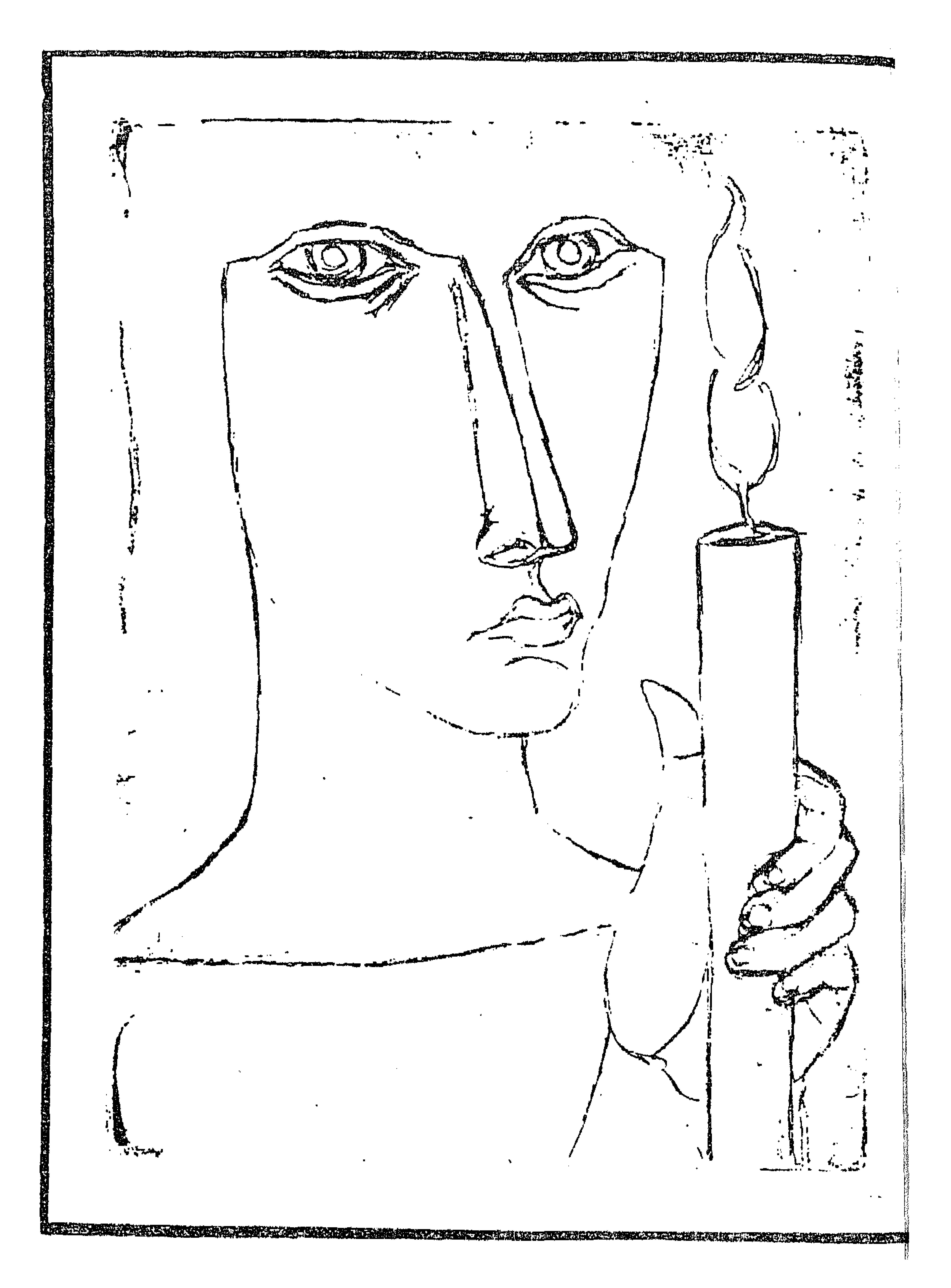
رأيت فجأة أن القرد المقدس يقف على باب الغرفة المفتوح ، يحجبه ويسده ، كان فى جسمه المجعَّد لمعان الجرانيت الأسود ، جلده الداكن متغضن الطيات ، وشعره الكثيف يرسل شرراً كهربياً تقشعر له روحى .

وكانت حول عنقه ، ووسطه ، عقودٌ من الفضة وحبات الفيروز ، لها صليل على جسمه الصلب .

كان غير إنسانىّ ، غير عاقل . وقريباً جداً منى أعرفه تماماً ، ويرانى . مدّ يديه وأطبق على عنقى .

١٩٨٩/٨/٥

* * *



٤ المسرح

«الأقنعة غواياتُ الحقيقة»

كان ميدان الأوبرا ليلتها بهيجاً .

عناقيد المصابيح الكهربية ناضجة بعصارة بيضاء مشعة ، وسعف النخل السلطاني يهمس في نسمة المساء ، وتمثال إبراهيم باشا يومض جسمه البرونزي في كبرياء .

دخلت وحدي .

الباب الحديدي والسلالم الرخامية عريقة تلمع . والسجاجيد الحمراء تمتص الأصوات . وجدت أن اللوج المنخفض الذي يطل على خشبة المسرح مباشرة مازال خالياً . كان مقعدي وثيراً ومغرياً بالراحة . استندت إلى سياج الشرفة المُبَطَّنَة العميقة اللون . وقلت : «لماذا لم يأتوا؟ أوشك الميعاد أن يجيء .» ثم كأنني نسيتهم تماماً .

كان طنين الكلام وحركة الأقدام واللغط الهادئ يصعد إليَّ من القاعة المنثورة بحبات النور المدورة ، وكانت حمرة القطيفة المكتومة توحي ببذخ مكتوم .

الدقات الثلاث ، خفتت الأضواء وسقط اللغط والطنين رويدا .

جاء إلى مقدمة الخشبة ، من أمام الستار ، رجل ثقيل الخطو ، قصير ، مدموك البنيان ، وفي يده ورقة . سمعت جاري يهمس بصوت واضح :

«محمد بك صبرى، المدير» .

وقف مدير الدار أمام عمود الميكروفون بقرصه المضلّع الكبير ، انتبهت الآن فقط إلى أنه كان هناك ، منذ البداية . وقال : سيداتى وسادتى . يؤسفنى جد الأسف أن أنهى إليكم .. أن أقول .. أعلن .. عندى نبأ أليم ..

انفتحت الستارة الثقيلة المُذَهّبَةُ التطريز بصوتٍ حفيفٍ معدنى مسموع .

ولكن المسرح خاوٍ . ديكور غرفة الاستقبال الأوربية التقليدية من القرن الماضى ، يبدو موحشاً ، خافت الأضواء .

وعندئذ رأيتهن . كل الممثلات . يقفن صفاً واحداً فى الأمام ، وخلفهن الممثلون فى الصف الثانى .

ملابس التمثيل النسائية الضخمة الوَقور ، قديمة الطراز ، تبدو عليهن جد قشيبة لم تُلبس من قبل ، الفساتين الملونة ، زرقاء وخضراء وموف ، لامعة وثقيلة ومنتفشة ومليئة بالكشكشة والتوشية ، راسخة الشكل ، والبدل الرجالى ذات الياقات المفلطحة العريضة والفتحات الضيقة والأزرار الكثيرة .

كانوا صامتين ، جادين فى وقفتهم ، دون حركة .

نزل على القاعة كلها صمت الترقب .

خرجتْ من بينهم ، طويلة ، قوية الحضور . وتقدمت إلى الميكروفون ، فكأن المدير قد اختفى ، مع أنه ، فقط ، تراجع خطوة واحدة إلى الوراء .

طاف بذهنى أنها مازالت تحتفظ بهالةٍ من مجدِ مسرح العشرينات ، عندما كانت معبودة الطلبة ، فكّوا لجام جوز الخيل من عربتها الحنطور الملاكى وجرّوا العربة بأذرعهم المتكاتفة ثم تسابقت حشودهم إلى حمل العربة حملاً ، من بيتها فى شارع فؤاد إلى المسرح فى عماد الدين .

سارة برنار الشرق ، النسر الصغير ، هاملت ، كليوباترا ، شجرة الدر،

ديدمونة ، بلقيس ملكة سبأ ، جوليت ليلى المجنون زبيدة البرمكية ، زيزى هانم وليلى بنت الفقراء ، معاً ، كم من أقنعةٍ حيةٍ .. كم من حيوات ..

وقفتُ مروَّعاً ، كنت قد صرخت دون أن أعى تماماً ما أفعل ، ارتفعت بعض الأنظار إلىّ من تحت ، اتجه إلىّ اثنان من شرطة المطافئ الذين كانوا على جانبى خشبة المسرح ، كأنما ليمنعانى من الحركة .

وقفتْ صامتة لحظة .

وقالت : سيداتى ، سادتى .

كان صوتها يرتعش ، محملاً بشحنة هزت القلوب ، وكأنما انتفض شرر النار غير المرئى فى جو القاعة كلها .

ثم كأنما استجمعت نفسها المشتتة بجهدٍ جهيد ، وهى تقول : - سيداتى ، سادتى .. انه ليحزننى وأنا أقف بين أيديكم على هذا الهيكل المقدس ، أن أنعى إليكم سقوط وردة المسرح اليانعة ، نجمة الفن الساطعة ، ممثلتنا الباهرة .. الزاهرة ..

تكَسَّر صوتها مرة أخرى وهى تنطق اسمها .

قالت كأنها تستجمع آخر ما فى وسعها من تشدد :

- سقطت من بيننا منذ قليل ، استدعينا لها نُطس الأطباء ، ورفعنا أيدينا إلى السماء . نقلناها فوراً فى كنف الحكماء . ولكن .. لكن أمر الله نفذ .. وفقدناها .. يرحمها الله .

ثم أجهشت بالبكاء الصريح الذى كان له الآن صدى غريب فى القاعة الصامتة .

كانت القاعة قد شهقت ، كأنما من غير وعى ، عند سماع الاسم .

الآن هب الناس واقفين ، انفجر النشيج والبكاء وصرخات نسوية قصيرة ثاقبة ، أضيئت الأنوار كاملة وانفتحت كل أبواب الخروج .

نظرت عَرَضاً إلى جانب الكواليس القريب منى ، الأعمدة الرومانية المتقنة الصنع معمولة من الخشب الخفيف ، أقواس النصر عتيقة الحجر ، من الأبلاكاش ، فازات هائلة خضراء خزفية اللمعان ، من الكرتون ، غابات السرو والبلوط شاسعة حتى الأفق البعيد الذى تغرق فيه شمس متوهجة الحمرة على لوحة مترية ، كراسى لويس الخامس عشر مكومة فوق بعضها بعضاً ، الموائد الرخامية السوداء ، أسوار البيوت الريفية من الشجر القصير المجذوذ تحيط بجناين مونقة بالتيوليب والبنفسج ، الجبانات الممتدة فى ساحات الكنائس القوطية ، الكوبرى على الترعة الصغيرة أمام القهوة الفلاحى ، المآذن السامقة وجدران الجوامع المخططة بالأصفر والبنى القاتم ، السلالم الضخمة عريضة الدورات تصعد إلى شرفات داخلية مسورة بحديد مشغول ترقى عليه خصل الزهور ، فناء محطة مصر ، وتماثيل عريقة ملقاة على وجوهها مكسورة الأنف، المنصات والبراتيكابلات الخشبية ، فوانيس الغاز مضيئة أبداً فى شوارع مبللة بالمطر ، بَكَرَات ضخمة من حبال متورمة الفتيل وسلالم نقالى شاهقة وكابلات متدلية وسميكة منذرة بالخطر ، والأنوار الصفراء تتخايل بين هذه الركامات ، تخبو وتشتعل بضعفٍ من جديد فى ممرات ضيقة يهب الهواء فجأة على القماش المرسوم والورق المقوى فتهتز الأعمدة والغابات والبنايات بخفة ويترقرق نسيجها . صعدت إلىّ رائحة تراب الكواليس .

وهى ، وحدها ، واقفة هناك .

كانت تحدق إلىّ ، وكأنها لا ترانى .

أعرف أنها ميتة ، وأن حبى لا يموت .

لم يكن أحد يراها هناك . لم يسمع أحد صرختى . هل ناديتها ؟

وكأنما ارتسم على شفتيها ظل ابتسامة .

وعرف أنها تتألم ألماً عميقاً لا برء منه . لا لنفسها ، بل لي ، وربما لنا كلنا.

قلت : ما الذي يدعو إليك هذا الألم ؟

قالت : لا شيء . ربما نزعة حارقة ، هكذا ، إلى أن أقول .

قلت : لماذا الألم ؟

قالت : أزمة معقودة في النفس . ترمضني . الكبرياء تحول بينها وبيني ، هل لأن حريتي الوحيدة هنا ؟

قلت : أما من خلاص آخر ..؟

قالت : امتناع كامل للوصال .

قلت : أحتم أن ينوء بالواحد كلُّ هذا الثقل ؟

قالت : هذه ساحة موحشة . ليس فيها أحد .

قلت : ولا موكب المحتفلين . ولا المريمات الثلاث ؟

قالت : ولا جنود التعذيب ، بالسيوف والرماح .

قلت : ليس من أجلك . بل من أجلهم .

قالت : ليسوا هناك .

ثم قالت : ومن أجلك أيضاً . فهل عرفت ؟

قلت : مريرٌ حمل هذه الأثقال في داخلي ، أنا أيضاً . وما من طريق .

قالت : وكأنني لم أقل . لا أحد سمعني . كل ما فعلت كأن لم يكن .

ثم قالت : لا يريدون مني ما أعطيه لهم . أقدم لهم أشواقي وهتفاتي ،

صيحات حبٍ وعذابات ، جذاذات الروح . ما من أحد يصغى . لا يريدون . لا يريدون .

قلت أنا : واحدٌ هو الكل . أسمعك أنا ياحبيبتى . أريدك أنا . ولو واحد فقط .

قالت : مازالت ساحة الجلجثة موحشة . وحيدة .

قلت : الأقنعة غوايات مقيمة .

قالت : دموعى لكم . أنتم لا ترون .

قلت لنفسي : النور ظلمة كاملة . طبعاً. ماذا كنت تنتظر ؟

قالت لى : كانت قرية أمى فى الشرقية مرمية على أرض كأنها سحاب مريد منذرٍ بالمطر الوبيل ، وعندما تمطر الدنيا فعلاً تتحول طرقاتها إلى أوحال عميقة الطين . وتترك البهائم حفراً غائرة متتالية فى الأرض المعجونة بالبلل .

سوف أقول : ستأتى لهم كهرباء السد ، والتليفزيون ، وأفلام البورنو فى الفيديو ، وفراخ الجمعية ، والعيش المدعوم أبو عشر قروش .

قالت : الطقوس اليومية كانت محور حياتهم . النوم على الفرن شتاء وعلى المصطبة صيفاً ، مضاجعة النسوان ليلة الجمعة المفترجة وكل ليلة أخرى عند فرج الله ، عناق الأرض بالفأس والمحراث ، الصلاة فى الجامع ، الجوزة وطقّ الحَنَك على القهوة ونَتْف فروة الرايح والجاىّ ، كتابة المرضحال والشكوى الغُفل من الإمضاء ، أكلة البِتّاوْ بالمش والجُعْضيض كل يوم ، والزَفَر أيام المواسم والأعياد . زيارة الموالد والتبرك بالقديسين وأولياء الله الصالحين وطلب الشفاعة من الإمام الشافعى والسيدة زينب وكل أعضاء المحكمة الباطنية ببركة الرسول ، السيجة والتحطيب، طقوسية عريقة متحدرة من غورٍ بعيد ، مأخوذة إلى القلب دون تفكير وليست شكلية".

ثم قالت : والقبح اليومى كان قناعاً . وفيه شعر أولىٌ وعميق .

قلت : مامن شىء يغفر القبح والمرض والظلم . ولا الشعر .

وسوف أقول لك ماذا حدث لنا ولهم ؟ خمت مصر برائحة النفط وفلوس الخليج . خمت بموتانا ، هات الرفش والمعول . سقطوا تحت سطوة الاليكترونات. لكنهم يظلون يقولون : يرزق الهاجع والناجع والنايم على صماخ ودانه .

كانت البروجكتورات الضخمة تلقى بأضوائها الساطعة فتنعكس من على خشبة المسرح وتنفذ من بين أستار الكواليس الجانبية تلقى خطوطاً عريضة حالكة السواد كأنها قضبان حديدية غليظة نائمة على الأرض ، وخطوطاً ناصعة النور تعشى البصر فى العتمة الجانبية . وكانت البقعة الدائرية الرأسية من النور تنصب عليها .

تبدو صغيرة القد لكن بضة ، مليئة ، سيالة الجوارح فى وسط ساحة المسرح ، وجهها مشرق وسعيد .

فى صوتها وإيماءاتها هذه الحرية ، هذا التبذل ، عطاء الجسد للجمهور طواعيةً دون ضن .

وكأنها لا ترتدى ، أصلاً ، تلك الملابس المقطوعة المسدلة بمكر وحلق على جسمها المتحرك الذى يبدو كأنه يعود إلى براءةٍ حسية بدائية فلم يعد بحاجة إلى غطاء أو عراء، مثل الأجسام الوحشية تجوس وتتربص بصيدها الطبيعى فى عنصرها الطبيعى .

قلت : أيهما القناع ؟

قلت : أليس الحق كامناً فى القناع ؟ ماذا تقول المرآة ؟

من يقول إن هذه التى تنطلق عن سجيةٍ عميقة فيها ليست إلا قناعاً ؟ من

يقول إنها لا تمشى ، هنا والآن ، حقاً ، على برّ هواها .

قالت لى : كان يريدنى أن أكون له ، فى غرفة النوم ، كما أكون ، أنا ، لكم جميعاً ، على خشبة المسرح . ذلك مستحيل . تماماً . ماذا باستطاعتى أن أفعل ؟

قلت لها : من أنتِ ؟

كان ينتظرها على الباب ، شاحب الوجه ، غضوباً ، له فك مضلع وشارب كثيف على طريقة ستالين . وانطلقت تجرى إليه من على الباب ، كان ينظر إليها بعبوس ، دخل معها العربة الفولكس واجن القديمة ذات الرفرف المكسور. مضت السيارة إلى ناحية كوبرى أبو العلا .

كان الخواء كاملاً . الحلم قد أفرغ فجأة من كل محتواه . ليس فيه ولا صورة واحدة . بل ظلامٌ يهب فيه هواء غريب .

١٩٨٩/٨/٨

* * *



على جسرٍ ممدود

«يقينُ الجسد موتٌ أول»

كانت مياه النافورة فى وسط ميدان العتبة تومض وتُشع بالليل وهى تنبثق ثم تتساقط ، زهرة مائية كبيرة تتفتت نِثارا .

نقيق الضفادع يصعد إلىَّ من حول النافورة ، عنيداً ملىء الحَلْق . رأيتهن على أطراف الرخام المبلول ، خُضراً مرقَّطة ومنتفخة بملاسةٍ داكنة .

كانت هادئة وواثقة .

الترامويات تدور حول الفسقية تصر بعجلاتها الحديدية صريراً يكشط الروح ، ثم تنشعب - وهى تتأرجح ، غاصةً بالناس - إلى مقاصدها ، أو متاهاتها . تصعد شارع محمد على أو الفجالة أو فؤاد أو شارع الجيش ، بعضها يدخل من بوابات تتسع لها بالكاد ، ومن بنايات كأقواس النصر مخططة بالأصفر والبنى ، وتنفذ إلى جوف العمارات التى تقع فيها لوكاندة البرلمان ومبنى البوستة وقهوة متاتيا ، وتمضى هى تصلصل بين الأعمدة المربعة المتينة الحجر إلى عتمةٍ داخلية مُخايلة ، ويأتى غيرها يدور حول النافورة ، أرقامها الأفرنجية والعربية ، بالأبيض على أرضية زرقاء ، غامضة لا تقرأ فى أنوار الميدان الخافتة ، وأقول هذا إهمال من المسئولين يجب أن يُصحَّح ، وعصى السنجة الطويلة المائلة إلى الخلف تطلق شرراً صغيرا فى احتكاكها بالكابلات الكهربية العلوية المتراخية فى الوسط والمشدودة عند أعمدتها الرفيعة الطويلة، والسائق يضغط على الجرس النحاسى الذى يجلجلُ برنينٍ

معدنى متعاقب متراوح النغمات .

صعدت إلى المقصورة التى تلى مقصورة الحريم ، مباشرة ، وكانت مفتوحة من الجانبين .

كن يجلسن ، بالفساتين المشجرة أو الساتان المكشكشة ، المعمولة فى البيت ، والملايات السوداء النازلة من على الكتفين ، وقمطة المدورة المحزّقة على الجنبين . أجسامهن حافلة مرتاحة الأعضاء على خشب المقاعد المتقابلة .

دار الترام حول الفسقية التى يترجرج فيها الماء عند الحافة الدائرية الرخام، من أثر سقوط نثار النافورة الدقيق ، ويصفو ويروق فى الوسط .

السمك محتشد متراكب فى الماء الضحل ، مكدس فوق بعضه بعضاً ، بطىء الحركة ، سميناً وممشوقاً ، شهىّ الشكل ، وفكرت أنه يمكن أن يؤكل ، هكذا ، نيئاً وبريئاً ، لأنه متاح وسهل وجاهز ، ثمار البحر ثمار الأهواء العميقة.

سقط عليه ضوء مركز ساطع كالبرق ، لحظة واحدة ، عند دوران الترام .

جلد القَرْموط الأسود الدامس ، لامعاً وزلقاً وشواربه كالفسائل متوترة تجوس ، عظام رأسه مفلطحة تبدو صلبة عنيدة المكسر .

والثعابين النيلية تنسل وتنساب بنعومة خارقة من بين جسوم السمك الأخرى ، وتحتها وفوقها ، تلتف حولها وتنثال منها ، دهنية الملمس ، جياشة بطاقتها الداخلية المتلوية ، فى قوتها تصميم وعزم على التلمس والبحث المستمر .

البُلطى المنتفخ الصدر بلحم النيل ، أبيض الزعانف ، لبنىّ الزرقة ، غضّ ، فلوس قشره البيضاوية المتراكبة ممنمةٌ واضحة وحادة الحواف .

البورى والمِياس والقاروص ، بحمرته الخافتة الخجول ، بخطوطه العريضة

اللامعة ، داكن الظهر فاتح البطون ، حلقات عيونه الصافية الزجاجية فيها إدراك يتجاوز كل شيء ، والخياشيم حمراء ترتعش بحساسية مرهفة ، مكومة فوق بعضها بعضاً ، تنزلق وتتماس فى سباحتها اللانهائية محصورة المدى .

وسمك موسى رقيق الجسم ، مبطط ، عروقه البيضاء ، خيوطٌ لبنية اللون، تضرب فى شفافيته النقية .

وزعانف السردين تنتصب وتطش الماء بارتطامٍ لزج فى اندفاعاته واصطداماته ووثباته القصيرة على مسطح العُمق الضحل ، وغوصه بعنف ، رأسه أولاً ، يشق طريقه تحت الكتل المتحركة ببطء أو الساكنة تطفو مُسْتَكنّة على فراشها المائى الكثيف ، جسمانيّتها مطلقة وجمالها كامل .

ثم أكمل الترام دورته .

من وراء الحاجز الخشبى الذى يفصل بين المقصورتين ولكنه لا يصل إلى سقف الترام أحسست ألفة الأجسام النسوية التى تأتى على الفور بين الستات البلدى ، وسقوط الكلفة بينهن فى الأماكن العامة .

كان الصوت يتموج مبطناً بشهويةٍ دسمة :

– يادى النيلة على رِجّالة الزمن ده ياختى عاديك . دلوقتى ياحسرة ، اللى يتجوز واحدة عايزها تصرف عليه وعلى أهله كمان . كان زمان الواحد يعرف مقام الست ، ويعرف يهنّيها . دلوقتى حتى أولاد الذوات شَحَتوا عاديك . وولاد البلَد قال إيه قال عايزين يعملوا ذوات ، والستات هى اللى تشتغل ياحسرة .

رد عليها صوت تبدو صاحبته فى أول الشباب ، لكنه منذ الآن صوت امرأةٍ تحققت نسْوِيّتُها وأحبطت أيضاً :

– يُو .. والنبى عندك حق ياختى عَدَاكِ الغلط والعيبة . قال ما عيبة إلا

العيبة . دا الجدع دلوقتى ياخد مراته يأكّلها سندوتش ويركّبها التراماواى اسم الله على مقامك وقال ياما هنا ياما هناك . زمان كان الراجل ياخد مراته عند الماوردى ولاّ سمعان تقطع قماش من الغالى زيّ ماهى عايزة ويودّيها عند الحاتى ، ولاّ الحاج على السماك ، ويأكّلها أكلة معتبرة . دلوقتى الجدع من دول يخاف يمشى معاها على كوبرى الست بديعة لحسن نفسها تروح لقزازة كازوزة .

ويعود الصوت الدسم الرخِيّ الشبعان .

– ياختى قطيعة تقطع الرِجّالة وسنين الرِجّالة .

وواضحٌ مع ذلك أنه ليس عندها أحلى ولا أشهى من الرجّالة ، وسنينهم .

خدعنى الكمسارى وأعطانى تذكرتين بتلاته تعريفة بدلاً من حقى : تذكرة بقرشين . ورأيته يمد يده بتذكرة بتعريفه إلى السائق فيضعها فى جيب معطفه الكاكى الكبير ، وقلت : «كم تذكرة يحوّشها كل يوم ؟» وراح الترام فجأة يلفّ ويدور فى شوارع جديدة علىّ ، غريبة عنى ، ولكنى أعرفها بشكل ما ، كأنما هى شوارع الاسكندرية المبلّطة بأحجار البازلت السوداء المضلّعة يهب عليها هواء البحر المبلول ، أو شوارع زيورخ والبنايات الشاهقة تحفّها بصمت وثقل ، ورأيت على غير انتظار أن فى الترام بجانبى سيدة نوبية نحيلة ضاوية العظام تخفى وجهها بطرحةٍ سوداء على طرفها خطٌ عريض بنفسجى داكن ، وهى تكح كحة جافة ، وكان على حجرها ولد مجروح فى جبينه ، والجرح مربوط بعصابة زرقاء كامدة تبدو على قماشها آثار دم سوداء .

ثم نزل السائق ، وتركنا .

وانطلق الترام ، دون توقف ، يجرى فوق انحدار الجسر ، على صفحة النيل العريضة ، بين الموْتين .

وكأنما كانت قد قالت لى :

- الواقعة الحسية ، الفيزيقية ، البحت ، هى وحدها المطلق . هى الكينونة. صميم اللحم ، وحده ، هو الحق .

وكأننى لم أقل :

- أعرف . أعرف هذا فى لحظة اندفاقة المنىّ من حَقْوىّ . نشوة التحليق بأجنحة الله ، فى سماءٍ لا قرار لها . أعرفَ . أعرف .

فهل قلت : أمّا همس الأحاسيس ، وخيالات التجريد ، فهى بضرورتها نفسها غائمة ومقطوعة ، مهلهلة مهما أحكِم نسقها ؟

هل قلت لها أيضاً :

- أنت ، فى جسمانيّتك الخالصة ، فى جمالك الكامل ، غير إنسانية ؟

قالت : انظرْ إلى وجوه القديسات ، جامدةً تماماً ، جميلة بثباتٍ تماماً فى لحظة الاستشهاد ، وهن يمتن .

قلت لها : أعرف وجهك أنتِ فى لحظة ذروة العشق ، وأنت تأتين ، على شفرة النشوة الحادة النهائية ، هذاَ الجمال فى الموت هذا الجمال فى القتل هذا الجمال على آخر المتعة ، هو ، نفسه ، جمال القناع . جمال الأبد . نظرة الحياد الكامل كأنه إنكار كامل .

وقلت أيضاً : فيما وراء الإنسانى . فيما وراء جسر الفَقْد .

قالت أيضاً : عندك هوس التثبيت . جنون الحَجَر . وهْم الديمومة المستحيلة.

قلت : الجمال الكامل - كالعدالة الكاملة - هو أيضاً لا إنسانى . صرخته خرساء إلى الأبد .

قالت باسمة ، بخفوت معابثة كأنها آلية : أنت كالقطط ، تأكل وتنكر .

قلت ، جاداً ، أحس سخافة جديّتي : على العكس . قُبْلتك على يدي ثابتة إلى الأبد .

وعرفاني بها مقيم حتى عبور ضفة هذا الجسر ، هذا الحب ، الذي هو نهاية.

قلت لها : شيخنا أبو العلاء قال : «حياةٌ - كجسرٍ بين موتيْن . وفقْد المرء إن يعبر الجسرَ» .

قلت : معيدا ومملاً : طعم حبّة ثديك فى فمى لا يزول . سفرنا معاً لا يحطّ الرحال .

وقف الترام وحده .

وصل أمام حديقة ، كأنها فى «مينا هاوس» ، وارفةٍ وأثيثة بأشجار السرو والنخل والجازورينا والسنْط والمانجة والجميز . وكنت وحدى ، أتشمس ، على كرسى من الحديد الأبيض المشغول . مسطحات العشب الخضراء ممتدة أمامى حتى النهاية . مروحة البئر الارتوازية عالية تدور ببطء فى السماء شاحبة الزرقة . وكأنما الصحراء ، بعد ، هناك ، عميقة ومنتظِرة .

كان المبنى يرتفع إلى يمينى ، بأدواره المتتالية ، شاهقاً وعريضاً ، فيه شرفات ناتئة ، حجرية ، بسياجٍ من أعمدة الرخام القصيرة مسحوبة عند الطرفين ومليئة عند سمانتى السيقان اللامعة ، وفيه مقصورات داخلية تغوص فى آبار السلالم المكشوفة .

وكانت الصروح الثلاثة الشامخة تبدو لى ، على ثقلها ورسوخها الألفىّ ، محلّقة فى السماء البيضاء تقريباً ، بلا وزن .

كان ميلاد وصفى يتجه إلىّ ، وخفق قلبى من المفاجأة . نسيت الآن تماماً

كأنني لم أعرف قط أنه غرق في العجمي منذ أربعين سنة ، وكان يبتسم وفرحت بلقائه وقلت له بلهفة :«ما رقم غرفتك» ؟ قال : «لا أعرف . وأنت؟» قلت : «١٦» قال : «هذا رقمك السحري ، أليس كذلك ؟ خلِّ بالك !» وفكرت أنه سيلقي علينا الليلة ما يحفظه من أغاني الصيادين والفولكلور الاسكندراني ، وأنني سأكتبها ، وأضع عنها مقالة هامة . ولم أجده أمامي ، ولكنه ترك في يدي حس يده وهو يصافحني مودّعاً إلى لقاء ، وكأن يده غير المرئية ما زالت تمسكني . ولم أستغرب .

وكانت الكلاب تنهش الزروع ، بصمت ، عاكفة عليها .

قلت لنفسي : عيونٌ زرقاء بنار الجشع والجوع المستمر ، منضبطة الاتقاد ، تعرف الكثير جداً ، ولا معرفة عندها بشيء .

قلت : نحن .. نحن كالسمك ، كالضفادع . لكن جسمانيتنا ملوثة .

قلت : أيضاً : هنّ أخريات . كلٌ منهن مستقلة ، معزولة ، تماثيل ، بل دُمًى مصقولة ، أثداؤهن المبذولة الصُلبةُ مكشوفة على عظام القفص الصدري. بطونهن مسطحة . معاديات ، لأنفسهن ، للرجال ، للعالم .

قلت : أنصاف حقائق وأشباه حقائق . ككل شيء .

قلت : أما الدفء ، والمعرفة ، والحقيقة ، فليست هنا ، أو هناك . ليس لها مكان ، ولا تاريخ .

قلت : مكرّراً ورتيباً : صحيح . ووهْم لا يقوم على ساقين .

الكلاب تشبه نفسها تماماً ، كما هي في نقوش الأحجار العتيقة ، كأنها بنات آوى ، لم تغيرها أزمنة سحيقة .

طويلة الأعناق ، مسحوبة الجسوم . جاءت في جماعات من أطراف الصحراء ، حلقات وفُرادى . تتبع أحدها الآخر ، وتعوي ، ترفع رؤوسها

المتوترة ، على آخرها ، إلى القمر المضيء بنور صلب .

كانت ضراوتها وحشية، وكانت تتوفز للهجوم ، أو للفرار ، خوفاً أو يأساً ، مشحونة بتهديد كأنه آتٍ من وراء القبور .

١٩٨٩/٨/١١

* * *



القرد والأطفال

«تمزّقات النور ليست مُظلمة»

كنت أعرف أنه حيوان عاقل . بل كنت أرى فى عينيه عقلاً لم أره من قبل فى عينى أحد . تصورت أنه سوف يتجه إلىّ بالحديث ، على الفور . لكنه استمر ينظر إلىّ ، فقط . كان عريض الكتفين ، وصغير الجسم . فى لون الحديد الأرمد .

ورأيت أنه يحمل على رأسه العريض المفلطح قرص الشمس المنطفئ ، متأرجحاً بثبات على قارب شاحب النور .

وكان شعر جسمه يتدلى عليه ، من حول رقبته المثلثة وعلى منكبيه فى خُصلٍ مجسدة تنسدل عليه حتى تغطى قضيبه الكبير . وكان جسده نَيِّرا من خلال هذا الستر .

لم يتكلم .

فى الصبح الأول ، فى أول الصبح ، نزل من على السندرة التى تعلو الحمَّام فى بيتنا القديم ، وكان الحَمَام الأبيض حواليه يهدل بصوت غريب ، وقد ضم جناحيه ، واقفاً على ساق واحدة ، رفيعة وطويلة ومحمرة الجلد .

نزل القرد الصَموت على السلم النَقَّالى بخفةٍ ورشاقة ، وحركاته فيها حكمة ليست فطرية بل متدبِّرة ومازال هادئاً ، صافى العينين .

ثم بسط جناحيه الواسعين من تحت شعر جسمه المنسدل .

قلت : من فصيلة الملائكة .

كان جناحاه طويلين ، قويين ، وفى حركتهما المفاجئة هبّ عليّ هواء بارد .

كنت تحت جناحيه . كان يطوينى تماماً .

وقال لى عندئذ :ما دامت عين المعرفة مفتوحة فلماذا لم تهجع عين الجسد؟

وقلت له عندئذ : عين الجسد أيضاً ترى حقيقتها . وحقيقتها لا تُدْحَض .

وعندئذ سطع منه النور الباهر الصاعق فأغمضت عينى مخافة التهلكة . وفى البرق المحيط سمعت صوته : كل نورٍ آخر هو الظلام .

وكنت على يقين كامل بأنه لم ينطق ، قط ، هو اللسان الدائم المتحرك أبداً بشهوات الروح وعزم الجسد .

بكى قلبى .

أما هى فكانت جالسة عريانة تقريباً . على الصوفا الوثيرة . ساقاها كعمودين نازلين على السجاد العميق المْوّج ، ومياه الفسقية المنحوتة فى الرخام تسيل بخرير ناعم من فوهات النافورة القليلة الارتفاع .

وكان القرد العاشق يقعى تحت قدميها ، يرفع إليها عينيه العسليتين بنظرة عبادة .

مدّ ذراعيه وجناحيه معاً، وأحاط ساقيها العبْلتين بأطرافه الأربعة، وانطبق الجناحان بصوت ارتطامٍ لحْمى . كان فخذاها العاريتان تطفوان فوق كتلة العناق الأرضيّ، وكان بطنها المدور الرائق السمرة يستقر، براحةٍ وتماسك، على رأسه المدفون عند ملتقى الفخذين، وكان صدرها الشامخ ، عالياً فوقْ ، مثمراً برمّانتيْه الحمريتين الموردّتين ، تحت الجاكتة النايلون الشفافة ، فاتحة الزرقة سماوية النور ، مفتوحة . وكانت أكمامها القصيرة وفتحة الطرفين كلها ملفلفة بتطريزٍ متراكب التلويات على بعضه البعض ، من نفس اللون ونفس النسيج .

قلت : هذه قُدسيةٌ تتجاوزنا .

وقلت أيضاً : كل موازينى ترجحها هذه اللحظة ساكنة الأبد .

وقلت أخيراً : ومن يرصد حساب الزمان غير المرصود ؟

أخفيت عينى وفكىّ ، وأسنانى القوية ، بين فخذيها .

فى البحيرة الساجية عرفت أن فى ظلمة هذا الجسد نوراً لا مثيل له، وفيه بهاء لا قياس عليه. كل شىء آخر-مضى أو سوف يجىء- جافٌ خشن معتم.

وقلت : فى عمى هذه اللحظة أزلُ البصيرة .

وانتظرت انقلابَ الموج وضربات عاصفة الشهوة .

كنا معاً ، جميعاً ، وكنا قد شارفنا على حمرة صباحٍ صامت . دخلنا حديقة مهملة ، عليها ورق الشجر اليابس ، وبقايا السنين . كان سورها الخشبى مفكك الألواح ، متداعياً .

الأشجار الدهْرية الضخمة وارفة وغصونها الكبيرة ، مفروشةٌ واسعةٌ ، متهدلة وشعثاء ، تحتها دكك عتيقة متآكلة الأطراف مشروخة الخشب .

وكأننى نشقت رائحة التراب الطبيعى القديم تهب فى الممرات المظلّلة التى تغطيها حشائش جافة وقوية العود .

أما البيت فكان كبير الحجم . منخفضاً ، ليس فى جداره السميك إلا نافذة عريضة واحدة ، مفتوحة على غرفةٍ عريضة واحدة ، مهجورة ومعتمة ، وفيها بيانو ضخم ، مائل على جنبه ، مكسور الأقدام ، والصوفًا مكسوة بقماش كريتون أصبح الآن من غير لون ، مطموس النقوش . ورايت أن البيت يقع على جسر رملىّ مرتفع فوق شاطئ النيل المهيب ، أمواجه فى الفيضان متلاحقة خصيبة الحمرة مُدمدمة .

وكانت ترتفع على جدار البيت الخلفى تعريشة عنب ، عناقيدها صلبة محجوزة العصارة ، وأوراقها العريضة خشنة الملمس ، مانعة .

قلت : لماذا الخراب ؟ والبينونة ؟

قال : لأن الصمت نذير الفناء ، وصنوه . لماذا صَمَتّ ؟

قلت : لم أنطق كلمة زور واحدة .

قال : لن تجتاز . لن تصل إلى الشط . ليس لديك من مركب ولا مجداف.

قلت : ريشة معت شراعى الوحيد . تحته إبحارى وعبورى .

لن أخشى تحته موج الظلمات. متى أجد عذوبة الصحبة، ورفقة أرواح الفجر ؟

وكان البيت القديم قائماً هناك ، كأنه من بيوت عمال الدريسة فى الزمن القديم ، حارساً على قضبان السكة الحديد . ولم يكن هناك حوله شىء ، ولا أحد . فى خارج حديقته المنسية لا شجر ولا غيطان . فقط ، عميقاً تحت الجسر الرملى العالى ، يجرى النيل ، فسيحاً مرتفع الصدر بموجه المحمّر الغضوب .

ورأيته يقف على باب البيت وحيداً ، مدموك الجسم ، شعره الرمادى يكسوه حتى الأرض ، ورفع ذراعيه إلىّ ، فى عينيه نظرةٌ ترصدنى ، ولم أفهم مافى حركة ذراعيه ، هل هو تهديد ، أم تضرّع ؟ كان جناحاه مطويين .

قلت له : أدركنى . إن قدمىّ غير ثابتتين وأخشى أن يجرفنى الفيضان .

لم يقل شيئاً .

وكأنما قال : مامن نجدةٍ لك أبداً . اجتاحك الطوفان أم خَلاّك ، سواء .

سقط قلبى . كان يحمل وجهه . مربع الفكين ، حادّ الأسنان ، وكانت

عقود الفيروز وأطواق تمائم الخزف الأخضر تخنقنى .

وكأنما انحسرتْ ، هى ، عنّا . بارحتْنا . البينونة قاسية. الفُرقة لا تطاق ، والقطْع .

لم نعد إلا أنا ، وهو .

قلت : أنا ؟ أم هو ؟

أمام البيت ، وجدت الطفل نائماً على الرمل المحبب والحصى والزلط ، بلا حراك ، كانت جلابيته كالحة من التراب والطين والدم الجاف ، وممزقة تبين منها عظام صدره الناتئة السوداء ، كان وجهه محترق اللون مربداً ، مغمض العينين بعناد ، والجلد مجعّد حولهما . كان فيه مع ذلك شىء ما ، لا أتبيّنه ، يقول لى أنت هو الطفل الذى كنت ، مع كل الغيبة ، ولما تزل .

صرخ فجأة وهو نائم ، صرخةً وجعٍ طويلةٍ طويلة ، متقلبة .

معذّبة ، لا تُحتمل .

من غير أن يستيقظ .

كأنه تعلمّ أن يتعايش ، من غير حلّ ، مع الألم المقيم ، ومع الكابوس .

رأيته مرة أخرى ، يمسك بالعلم الأخضر ، الأبيض ، الأسود ، يلوح به ويطوح بالحجارة ، سمعت انفجاراً مكتوماً للغاز المسيل للدموع ، بين حيطان الأحجار الأليفة ، وقرقعة الرصاص . كان الطفل تنهلّ من عينيه دموع ليست من الحزن ولا من الألم .

ثم رأيته يسقط مضروباً بالنار ، مرة واحدة ، جامداً متصلب الوتر ، على أرض الجلجثة . على أرض الصليب . دون صوت وكان ينزل من ركن فمه خيطٌ رفيع من الدم .

قلت :مطلق الألم تجريد.ليس فى الألم مطلق.هو دائماً معجون باللحم الحىّ

قلت : أليست حقيقة الحس فى مجرد تقريرها ؟ دون برهنة دون دليل قوتها قوة الحلم . سطوة الكابوس لا تُنْقض . ما الذى يعطيها نهائيتها

ولكن الكابوس ، هو ، غيرُ نهائى ، مهما كانت سطوته .

قلت : كان الآن يقف فى مواجهتى ، محْنىَّ الرأس ، صدره محلّى بتمائمى وأحجبتى المنقوشة بَخطى بأبجديّتى ، وهيروغليفيتى . شخاليل الكريات الذهبية تتدلى من رقبته الغليظة دون أن تصدر عنها أدنى صلصلة .

وكان يصغى إلىّ، دون أن يتحركْ، وكان هو وحده يدرك معنى ما أقول. رأيته ينقسم أولاً إلى ثلاثة أطفال، متطابقين مع أحدهم الآخر ومعه ثم أربعة ثم لا نهاية منهم واقفين صفوفاً متراصة متعاقبة حتى الأفق حتى آخر المدى . كل منهم صدره محلّى بنفس التمائم والنذو، كل منهم تتدلى من عنقه السميك أطواق كريات الذهب، ولكل منهم جناحاه المطويان تحت شعره الأرمد المنسدل .

أحسست ، فى جسمى ، أن الثلاثة الأبكار ترتمى على كومات من الفحم المتقد على بلاط البيت القديم .

صعد من الحجر الصلب المتوهج بالنار دخان اللحم والشعر المحترق . ورائحة الشئّ الجاف .

ولكن الثلاثة الأبكار ظلت تحدّق فىّ ، نظرتها يقظة ، حية ، وعاقلة لا شكوى فيها . ترصدنى بهدوء .عيونها الستة فى داخلى ، أنا .

وكانت ظهور الأطفال القِرَدة الإلهية مقوسة الآن على النار ، فوح احتراقها قوى يملأ البيت ، لا ينجاب .

انطفأت الأنوار ، ثم أضاءت وحدها وانطفأت مرة أخرى

مَنْ معى فى البيت ؟

كان على البلاط العارى ورق ممزق يتطاير به الهواء ، قصاصات صحف ، تَبَيَّنْتُها ، وصفحات مكتوبة منتزعة ومشّعثة ومطبقة ومتعرجة القطوع . سمعت خشخشة الورق ، قوية ، واضحة فى السكون .

قلت : مَنْ يمزق الظلام ؟ مَنْ معى فى البيت ؟

ورأيته ينتصب قائماً أمامى من جديد ، من بين رماد الأطفال الثلاثة المحترقين ، رافعاً ذراعيه إلى أعلى ، مفرود الجناحين بشعرهما الكث ، عريضيْن ، متوتريْن ، ممدوديْن إلى آخرهما .

كان مُرعباً . وعدواً .

وكان قريباً جداً إلى قلبى .

اندفعت أفرّ منه .

انطلقت أجرى ، أهبط السلم الحجرىّ الوعر .

كان ورائى ، أحسست أنفاسه السخنة ، ولمحتُه ، بطرف عينى ، ومعه فأس مدببة ، حادة السن ، تومض فى العتمة الخفيفة .

كان النور يبدو لى خَطاً أنيساً من تحت الأبواب الموصَدة وأنا أنحدر لا ألوى على شىء ، أنزل السلالم التى لا تنتهى .

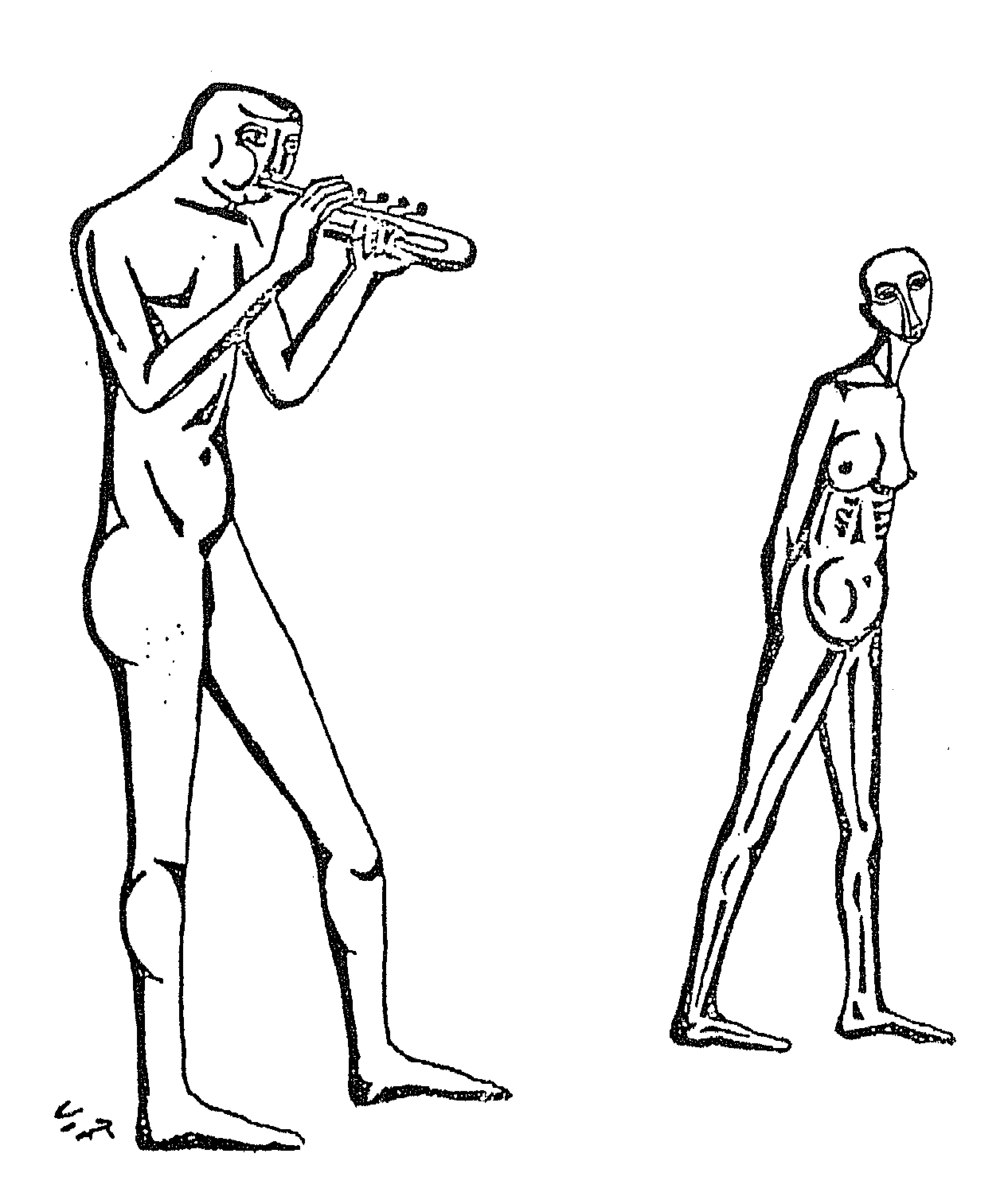
ولا الأبواب تنفتح ، ولا صرخة الاستنجاد عليها ردّ .

السلم هادئ مسالم لا يأبه لنيّةِ القتل .

وحتى من قبل أن أصل إلى الباب الخارجى ، المفتوح على مصراعيه تحْت، رأيت أن الأرض قد نورّت بنور النبات الأحمر والأصفر والأبيض .

١٩٨٩/٨/١٢

* * *



رقصة الأشواق

«وطيور العشق جُثُومُ»

كنت أربيها ، على سطح البيت القديم ، فى السَنْدرة ،فى البلكونة المطلة على شارع ابن زهر ، فى راغب باشا ، وفى الجانب التحتانى من مكتبتى الصغيرة ذات الرف العلوى والضلفتين الزجاجيتين .

كان منها الأبيض الشاهق متقد البياض ، ممتلئ الصدر ، هديله عميق .

ومنها الذى يضرب ريشه الهفهاف إلى زرقة وحمرة متقلبة مترقرقة ، منقاره طويل ولكنه صموت كتوم .

ومنها الْبنّىّ الناعم ، نكهةُ لونه أفريقيةٌ ساخنة وله غنة رتيبة الإيقاع .

والأسود المرقّط الذى تسرى فى طوقه المنقوش شهبة رمادية مائلة إلى البياض ، يتخطر بثقلٍ ودلال ، ضخماً بطىء النغمة .

وكان منها الأملح المنقّط خفيف القامة دقيق المنقار ، طويل السيقان محمرٌ جلدها ، يتنزى ويتوثب تطير به النسمة .

ومنها مُوَشّى القدمين بزغب صغير يرفرف ، وحده ، إذ يهبّ به الهواء .

ومنها نحيل القد، مسحوب بَرِّىّ الجسم كأنما شفّه هوى مشبوب .

لكن مياه عيونها، جميعاً، كانت صافية وعميقة، وكأنما فيها غضب نقىّ.

وكان ريشها الصغير يتناثر حولى ، على الأرض ، بين الكتب ، تحت الكنبة ،فى كل مكان .

ويجف زِبْلها الأبيض اليابس على الأرض ، على المائدة الرخام المستطيلة الدوران ، فوق رفّ المكتبة وفى قاعها ، وحتى على السرير ، فأجمعه وأبيعه بالرخص للرجل الذى يمر تحت فى الشارع وينادى : «زبل الحمام» .

كانت تحوم منذ شقّ الفجر ، وتطير ، تخبط خشب النافذة وزجاج البكونة، ثم تطير ، ترفرف بحُرّية ، وتعود إلىّ فى وقدة الظهر فتستكن إلى حماى . وكانت تسبح بهدوء ، دون صوت ، موجعة للقلب ، فى سماء ليالى القمر .

طارت الآن عنى . هل تعود ؟ هل تعود ؟

بحثى - حتى الآن - عقيم .

بعد سنين طويلة رأيت حمامتين بيضاوين فى ريشهما نثار البُنىّ الفاتح ، تتبختران بثقة وتمكّن فى دكانٍ ضيق فى شارع الصَليبة ، حاشدتى الصدر ، تنقران أرضية الدكان دون تعجُّل . ورأيت فجأة أن هذا الدكان الفقير الغريب له أرضية ترابية ، وكانت فيه رفوف خشبية مُسْودّة اللون ، معظمها فارغ ، وبعضها عليه ما يشبه الخردوات ، وعلب صفيح كبيرة مقفلة وصدئة ، وزجاجات بيرة وويسكى وكوكاكولا فارغة مرصوصة . وكتب مدرسية مستعملة وكراريس وكشاكيل وأقلام رصاص وأقلام حبر جاف ، وبالونات منفوخة علاها التراب ، وعجلة بسكليت دائرية ضخمة مما يُستخدم فى السيرك والموالد ، واحدة ، وحْدَها ، مقطّعة الأسلاك ، وبَكَر ولَفّ خيطٍ أبيض واسود وحلويّات وكراملات ومصّاصات وبراغيت الستّ فى برطمانات قديمة الشكل ، وإبر الوابور والأقماع وأكواز اللوف الأبيض الخشن الفتائل والليف الأحمر المتهدّل الخيوط ، وصناديق خراطيش السجاير الملونة ورصّات كليوباترا وروثمان جنباً إلى جنب مع علَب هوليود وكوتاريللى وبَحّارى الفارغة ، وروبابيكيا قليلة ملقاة على الأرض ، نفايات البيوت طشوت مخرمة وحلل مطبّقة ومرايات مكسورة ، وأكوام مجلات عربية وفرنسية قديمة بهتت أغلفتها الصارخة الألوان وتمزقت ، وحوض حمّام من الرخام المشروخ الذى كان فاخراً فى زمان العزّ ، منزوعَ الحنفيات والمواسير الآن ، مسنوداً إلى الحائط المزدحم .

والرجل ، بجلبابه الرمادى ، ولحيته الرمداء الهائشة ، جالس على كرسى حمّام صغير يصنع لنفسه الشاى فى إبريق من الصاج الأزرق المدوّر على

سبرتاية صغيرة ، يبدو هادئاً ، سارح العينين فى أفق خاص به وحده .

رأيت الحمامتين تأتيان إلى قدميه الحافيتين تطويان ساقيهما تحت الأجنحة وتستنيمان إليه ، وقد انسرح الريش على الجسمين الممتلئين .

صبّحت عليه ، واشتريت منه نسخة من ألف ليلة وليلة قديمة من أول القرن، وناقصة جزءاً ، وأغلفتها مفقودة ، ودفعت بعد طقس الفصال الشكلىّ القصير ، جنيهاً واحداً . وعندما سألنى هل أكتب للإذاعة ؟ وقلت له نعم ، خصم لى عشرين قرشاً مرة واحدة على سبيل التحية والرجوليّة .

قلت : أين حمائم أشواقى الطائرة ؟

فنهض الحمام ، يتأرجح وجسمه يهتز بين أقدامنا ، وخرج إلى الشارع لكى ينقر حبّات طماطم شديدة النضج تفجّر جلدها الأحمر الضارب إلى صهبة قانية عن لحم طرى متهدل به بذور بيضاء كبيرة ، كانت الطماطم ملقاة تحت جذع شجرة سَنْط عريقة خشنة مشققة اللحاء ، صاعدةً إلى ما فوق البيوت القديمة المائلة على أحدها الآخر ، مبنية بالبغدادلى والطوب الأحمر الذى اسود الآن بين عوارض الخشب المتقاطعة ظاهرة للعيان . والشجرة تعانق أختها الصاعدة من حفرة واسعة عميقة فى خرابة جنب الدكان ، من أثر هَدْم . أحجار الهدد القديمة والأنقاض مازالت فى الحفرة قد غاصت وجفّت فى تربتها وفيها ربوات قليلة الارتفاع ووهدات ترابية تصلّبت ويبست ، سوداء طينها لا يجفّ تماماً ولكنه ليس مبلولاً تماماً ، جذور السنطتين التوأمين تضرب فى هذه الأرض ، عَضلة عَبْلة معراة ، خشبها يبدو أكثر غُضْرة وفتوّة من خشب جذعى الشجرة الواحدة المنقسمة اثنتين ، والأغصان الفينانة تتشابك فوق سطوح البيوت المتداعية ، وتتراكب وتصنع ظلّة خضراء عريضة .

قلت : لماذا تسحرنى الشجرة الوحدانية المشطورة، غير منفصلة ؟

قلت : هل لأن الحمام السمائى ، بعيداً ، يقطن أفنان هذه الشجرة التوأمين، حضنها وأعاليها ، جاثماً فيها جُثوم الموت ؟

أما الحمام الأبيض الأرضى الشكل فلم يلتفت إليّ أدنى التفات .

قلت : المحبة تحتمل كل شيء .

قلت : حانت ساعة تلقى . تهتّكت روحى شوقاً .

كنت على شاطئ كامايين ، أطل من شرفة أوتيل دى فرانس العريضة الفخمة . أمامى على المائدة الرخامية كأس طويل من مارى الدامية على حافته لذعة الفلفل الحادة . هواء المحيط يهب عليّ من خليج غينيا بسمائه المنخفضة المحمّلة بسحاب أبيض سرعان ما سوف ينجاب عن حَرٍّ مصوِّح .

الصخور السوداء ناتئة الحوافّ عميقة الشقوق شواهد ماثلة أبداً على اهتياج بركانٍ قديم وسفوح الرمال تتهادى بيضاء طحين ناعم مسحوق جيداً تتلألأ فيه نقطُ متوهجةُ مثل سنّ الإبرة . وأشجار جوز الهند سامقة يميس سَعَفها بالثمار المحميّة المكنونة فى العلاء .

الخليج الاستوائى فى بهرة الصبح هادئ موجه لا زورديّ كأن صفحة الموج سماء توأم أخرى مبسوطة تحت أختها حتى شفْرة الأفق ، لا تكاد تترقرق .

شِباك الصيادين مفرودة على حجر الكورنيش المنخفض . مغسولة تفوح برائحة السمك وقد ركعوا تحتها ، بأجسامهم الناحلة المفتولة ، وطيات اللباس الاسكندرانى الأسود ملمومة تحت جذوع السيقان الجافة ، يرتقون قطوعها بإبرٍ طويلة تومض عندما ترتفع وتنخفض بين فتائل الشبك .

شَبَك حبيبى شَبَك .

القارب الصغير ، مشدود الأضلاع ، يقف على سيف البحر ، عند الخط الفاصل بين الرمل والماء ، يمسك دفته القردُ الإلهى العاقل ، مدموك البنيان .

القامات الأنثوية الرشيقة . أراها ، فى عكس النور ، مجسمة سوداء ، والنهودُ ثمار أخرى لامعة الجلد ناهضة بعصارتها الكثيفة المتماسكة .

تنزلق الحمائم الداكنة منسابة ، بالكاد تماماً على سطح البحر .

هل نزل البحارة بخناجرهم العريضة وذهبوا بهنّ إلى سفينة اسبانية جوانبها

مصفحة برقائق الذهب ، غارقة محملة بكنوز القراصنة القدامى ؟ ماذا يهفهف خلف القلعة العريقة التى لا يكاد الزبد النقىّ البياض يرغى تحت سفحها ؟
أراه من فوق حافة ماري الدامية وأوقن أنه ليس ثم شيء .
كل شيء سوف ينقلب بين لحظة وأخرى إلى نقيض مايبدو عليه .
القارب السحرىّ مركب سمك فقير عاد به الصيادون إلى المرسى بعد كدح ليل طويل فى قبضة الموج . تتزاحم بنات الأنفوشى وبحرى وراس التين عليه ، والستات التُخان بالملايات السودا ء النازلة من على الأكتاف المدورة تبدو منها قمصان النوم غير النظيفة تماماً عارية الأذرع والنحور ، ليأخذن منه بالرخْص شَرْوة سمك ملء القفة ملء الحلّة من السبارس والشرّ الصفير ، أو ملء الكَرَوانة جمبرى عاجىّ الجسد .
السفينة السحرية شراع مبسوط فى نسيم الصباح، فَرْدُ جناح حمامةٍ بيضاء ،تحلّق وحدها فى سماء الإشارات، سَبْحةُ صَبَابة، وجْد لن يبقى منه أثر.
أترقب ، وأتوجس خيفةً من الزوال والدثور ، ملهوفاً أمام دوران دراما لا سيطرة لى عليها ، لا أدرى عمَّ تتمخض فى أية لحظة . أحس رفرفة فى داخلى لا أعرف أن أهدئها ولا أريد أن أطامن من روعها .
وأعرف أن هذا كله قرين البِلى وأن العطب لا محالة مُدركى ، والتهلُكة .
هأنذا فى سخونة أحشاء العالم . أثداؤها المليئة ترضعنى سلافة حارة ثقيلة، صبواتى تذهب إلى البطن الخصب الوثير والأرداف العريضة السمراء، أما الخمر المشعشعة الحقّ فليست مرئيّة ولا محسوسة ، ولا تنبع إلا عن هذا الغنى الفاحش الذى أصلُ فى نشوة سكرِه إلى غايته ، وما لهذا الأمر من غايةٍ ولا حَدٌّ ، فما من لذةٍ أعرفها إلا وراءها أوفى منها وأتمّ . متاهات الفتنة والمعرفة لا أرعوى عن الضرب فى مسالكها ولا أخشى الهلك فيها .
مددت يدىّ وملؤهما لذاذاتُ الهوى وعلقم الموت معاً . مَنَار عقيدتى بلا خجل . هفيف الحمام الذى يغيب وما بلغت شيئاً . ظلاله قَطَعتها حافةُ الأفق

الحادة . سكران من الملء وسكران من العوز ، سكران بالتحقيق وبالطلب ، وبالنعمة وطعْن الحرمان ، سواء ، بلا صحو .

لماذا أحببتكِ ؟ لماذا ؟

عُمدة الحب اللقَيا لا الفراق .

لكنى لا أفرق، من سُكْرى، بين الوصل والنَفرة، وما من إفاقةٍ لى على القُربى، وعلى البينونة، معاً، وما تزول أشواقى عند التلاقى والمعانقة، بل تفيض .

فأين المفرّ ، وأين الملاذ ؟

قلت لنفسى : لا يكون لك ، منك ، شىء .

وكنا نعبر كوبرى السلطان . الأنوار العالية تتعاقب وتسقط على حِجرها داخل سيارتها الفولكس واجن ، وتُضىء فى ومضات متلاحقةٍ لحم فَخذيها السمراوين ، مفتوحتين قليلاً ، حاشدتين بشهوتى ، انحسر الفستان الخفيف قليلاً إلى أعلى ، وعليه علبة السجائر ال ستايفيسنت وشريط الكبريت منزوع الغلاف . ألتقطهما من الوهدة الطرية المتحركة أهونَ حركة فى تركيزها على قيادة السيارة والتحكمّ فيها ؛ وأعطيها سيجارتها مبللة أهون بلل بأثر نيّة قبلة متطايرة من على الحافة المستديرة .

وعندما عبرنا الكوبرى كان الشجر المتكاثف على رأس النيل يأوى النُقَط الغافية البيضاء مطوية الأجنحة .

أنوار الشط الآخر تلوح وتختفى تحت سَعَف النخيل بين المئذنة والمسلة الصغيرة الخجول ، منسية تقريباً .

وعلى ضوء النجوم رفعت إلىّ وجهها الخمرى المدور ، قناعاً مصقولاً كامل التدوير ، لا تهتز فيه خلجة ، وكانت قطرات الدموع تنزل من عينيها الواسعتين المفتوحتين ، كل قطرة مدورة ومنفصلة وتنزلق بنعومة على صفحة الخد وتنزل إلى منبت النهدين المفروشين براحة فى فتحة البلوزة الواسعة . دون

صوت ، دون كلمة . كأنها وحدها تماماً . وما زالت تمسك بمجلة الفولكس واجن وتسيّرها بحركة آلية .

رمقتنى لحظة واحدة . بنظرة حب لا مثيل لها . سرعان ما عاد القناع نظيفاً كامل البراءة .

رأيت أن أشواقى سوداء الجسوم ، يرقصن حوالىّ ، عاريات الأثداء ، والموسيقى الحوشيّة تحتدم ثم تختنق . أوصالهن تعلو وترتمى ، أشرعة أجسادهن مبسوطة مفرودة أمام عصف الشهوات ، تهبّ بها الأنواء وتنام على الريح الرُخاء .

يتمددن ينتصبن ، متوترات بين أنقاض أحلام غابرة مليئة بالدموع . الأرض تثوخ تحت الأقدام الراقصة ما تكاد تلمس تراب الغيطان المحترق المنثور بأوراق الذرة الجافة .

ينحين على قبور الآلام البائدة ، كأنما بحنان ، ثم يقمن لحظة ، شواهد ماثلات فى فضاء سحيق خاو ، ثم تنهار أحجارهن .

شعرهن الوحْف كثيفاً تغوص فيه الأيام القديمة وتعود .

لأشواقى أجنحة طويلة تتماسّ وتتراكب وتتحاضن، لحمها غضّ وقوى ومتماسك .

يدرن الآن حولى فى حلقة مقفلة، وجوههن زنجية الشفاه ، تأوُّدُ أردافهن حاد السرعة متلهف خاطف التحولات، ثم هو رضىّ ساجٍ يكاد يكون صامت الوقرقة .

طيور العشق راسية فى وسط الحلقة ، جاثمة ، ثابتة ، ثقيلة كالصخر وصافية العيون كالماء ، ومتقدة الأحشاء .

ثم وجدت أن شجرة البانسيانا الضخمة الوارفة التى تقتحم شرفة البيت القديم وتغرقه بغصونها العريضة المثقلة ، تحترق .

النار ساطعة ولامعة ولها وشيش وصوت مغرد .

النار على أطراف الشجرة فقط، تتقد فى شُعَلٍ دائرية صغيرة ملمومة على نفسها .

أصبّ عليها الماء بسطل أحمر من البلاستيك كنت وجدته على ذلك الشاطئ فى حلمى الآخر .

كنت قد طلبت المطافئ لكنها لا تجىء .

المياه القليلة تسقط على جدار البيت الذى سخن الآن من النار ، أحس وقدته تصعد إلىّ . المياه لن تكفى للإطفاء ، النار سوف تمتد وشيكاً وتلحق ببقية الشجرة وتدخل إلىّ من الشرفة وتنفذ إلى داخل البيت . ماذا أفعل . ماذا أفعل ؟ هسيس صوت النار لا يكفّ ، والغريب أنها ما زالت مضمومة فى كريات مدورة متلظية باللهب حول أطراف الغصون فقط ، كأنها شراشيب مشتعلة على ضفائر البنات المهتزة الطويلة . صوتها ، صوتها مُلحّ بثباتٍ واضطراد . صوتُها هو وحده يعلو . تقترب ، بنذيرٍ لا يطاق .

قلت ، أصاحِبُ سيدى الجنيد وأمشى على خطاه : إننى مكثتُ فترة وكأنما السماء والأرض تبكيان لحيرتى وحبّى . وحمائم أشواقى تطير عنى . ثم أصبحتُ وكأنما أحترق من غيبتهما فىّ . وهآنذا الآن أسكت . لا أقول شيئاً بعد عن البكاء ولا عن الحريق ولا يبقى لى إلا الموتُ الثانى ، يقينُ العطش .

١٤ مسرى ١٧٠٥

٢٠ أغسطس ١٩٨٩

* * *

فهرست

للمؤلف

قصص وروايات

١- حيطان عالية : مجموعة قصص القاهرة : الخراط ، ١٩٥٩
ط٢ (كاملة) بيروت: دار الآداب ١٩٩٠

٢- ساعات الكبرياء : مجموعة قصص بيروت : دار الآداب ١٩٧٢
ط ٢ بيروت : دار الآداب ١٩٩٠
ط ٣ - القاهرة: مختارات فصول، ١٩٩٤

٣- رامة والتنين : رواية - طبعة محدودة القاهرة : الخراط ، ١٩٧٩
بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠
ط ٢ - بيروت : دار الآداب ، ١٩٩٢
ط ٣ - الإسكندرية : المستقبل ، ١٩٩٣

٤- اختناقات العشق والصباح : قصص القاهرة : دار المستقبل العربي ، ١٩٨٣
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢

٥- الزمن الآخر : رواية القاهرة : دار شهدي ، ١٩٨٥
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢

٦- محطة السكة الحديد : رواية القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، (مختارات فصول) ، ١٩٨٥
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠

٧- ترابها زعفران : نصوص اسكندرانية القاهرة : دار المستقبل العربي ، ١٩٨٦
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩١

٨- أضلاع الصحراء : رواية القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٧

٩- يابنات اسكندرية : رواية بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
ط٢- القاهرة: دار الياس المصرية، ١٩٩١

١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة : رواية بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
ط ٢ - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ .
ط ٣ - القاهرة : مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر ، ١٩٩٦ .

١١- أمواج الليالي : متتالية قصصية — القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩١
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢

١٢- حجارة بوبيللو : رواية — القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩٣
ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣

١٣- اختراقات الهوى والتهلكة : نزوات روائية — بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣

١٤- رقرقة الأحلام الملحية : رواية — بيروت ، دار الآداب ١٩٩٤

١٥- أبنية متطايرة : رواية — تحت الطبع بيروت،دار الآداب ١٩٩٥

١٦- حريق الأخيلة : رواية — الإسكندرية ، دار المستقبل، ١٩٩٤

١٧- اسكندريتى : كولاج قصصى — الإسكندرية ، دار المستقبل ، ١٩٩٤

١٨- يقين العطش : رواية

دراسات

١٩- مختارات من القصة القصيرة فى السبعينات: مع دراسة — القاهرة : مطبوعات القاهرة، ١٩٨٢

٢٠- عدلى رزق الله : مائيات ٨٦ : دراسة — القاهرة : عدلى رزق الله ، ١٩٨٦

٢١- مائيات صغيرة : دراسة — القاهرة ، ١٩٨٩

٢٢- أحمد مرسي: دراسة ومختارات شعرية — القاهرة : ١٩٩٠

٢٣- من الصمت إلى التمرد : دراسات فى الأدب العالمى — القاهرة : كتابات نقدية ، ١٩٩٤

٢٤- "الحساسية الجديدة" : "مقالات فى الظاهرة القصصية — بيروت : دار الآداب ، ١٩٩٣

٢٥- "الكتابة عَبْر النوعية" : دراسة — القاهرة : دار شرقيّات ، ١٩٩٤

٢٦- "عصيان الحلم" : مختارات ودراسات فى الشعر — أبو ظبى : المجمع الثقافى ، ١٩٩٥

٢٧- "أنشودة للكثافة ": فى الفن والثقافة — القاهرة : المستقبل العربى ، ١٩٩٥

٢٨- مهاجمة المستحيل مقاطع من سيرة ذاتية للكتابة

دراسات معدة للنشر :

٢٩- مواجهة المستحيل : سيرة ذاتية للكتابة
٣٠- مراودة المستحيل
٣١- "ما وراء الواقع" في الظاهرة اللاواقعية
٣٢- "الحلم وزهرة المقاومة" : في الشعر
٣٣- "من العبث إلى الالتزام" في الأدب الوجودي
٣٤- "المسرح والأسطورة" في أساطير مسرحية
٣٥- ملامح أسطورية في مسرح طاغور

دراسات قيد الإعداد للنشر:

٣٦- "إيماءات عن الفن التشكيلي"
٣٧- " ملامح من قصص الثمانينات " : مع مختارات
٣٨- "لمحات عن شعراء الحداثة في مصر"
٣٩- "أضواء أخرى على الحساسية الجديدة"
٤٠- "في الواقعية وما بعد الواقعية"
٤١- "فجر المسرح"
٤٢- "في التراجيديا اليونانية"

كتب مترجمة :

٤٣- الخطاب المفقود : مسرحية أ.ل. كارجيالي — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ، ١٩٥٨ (نفد)
٤٤- الحرب والسلام : ليو تولستوي — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ، ١٩٥٨ (نفد) ط ٢ - القاهرة : الهيئة المصرية

العامة للكتاب ، ١٩٩٤

٤٥- الفجرية والفارس : قصص رومانية — القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨، (نفد)

٤٦- شهر العسل المر : قصص إيطالية — القاهرة : الهيئة للكتاب ، (كتب ثقافية)، ١٩٥٩ ، (نفد)

٤٧- فارالاكو : رواية غينية إميل سيسيه — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب) ، (الألف كتاب) ، ١٩٦٢ . (نفد)

٤٨- أنتيجون : مسرحية چان آنوىّ ، بالإشتراك مع ألفريد فرج — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، (الألف كتاب) ، ١٩٦٣ . (نفد)

٤٩- مشروع الحياة . دراسة فرانسيس جانسون — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٧(نفد)

٥٠- ميديا : مسرحية جان آنوى — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، (مجلة المسرح) ، ١٩٦٨ . (نفد)

٥١- الوجه الآخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارنجتون — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٨. (نفد)

٥٢- تشريح جثة الاستعمار : دراسة جى دى بوشيبر — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٨ . (نفد)

٥٣- الشوارع العارية : رواية فاسكو براتولينى — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٩ . (نفد) ط ٢ - القاهرة : دار الياس العصرية، ١٩٩١.

٥٤- نحو التحرر : دراسة/ هربرت ماركوز — بيروت : دار الآداب ، ١٩٧٢. (نفد)

٥٥- حوريات البحر : قصص أمريكية — القاهرة : دار الهلال ، ١٩٧٩. (نفد) ط٢ - القاهرة : شرقيات ، ١٩٩٥

٥٦- الإسلام والإستعمار : دراسة . — القاهرة : دار شهدى ، ١٩٨٥

٥٧- الرؤى والأقنعة : قصص مترجمة — أبو ظبى المجمع الثقافى ، ١٩٩٥

٥٨- ثلاث زنبقات ووردة : قصص مترجمة — معدة للنشر

مسرحيات طويلة
مترجمة للبرنامج الثانى

٥٩- النورس — أنطون تشيكوف
٦٠- سوء التفاهم — ألبير كامى
٦١- الحصار — ألبير كامى
٦٢- المجانين — ألبير كامى
٦٣- مسافر بلا متاع — جان آنوى
٦٤- بيكيت — جان آنوى
٦٥- عنقاء كثيرة الظهور — كريستوفر فراى
٦٦- سوناتا الشبح — أوجست سترندبرج
٦٧- انتهت الحرب — ماكس فريش
٦٨- السلام — أريستو فانيس

مسرحيات قصيرة
مترجمة للبرنامج الثانى

٦٩- المخرب — سول بيلو
٧٠- فى قلب السنين — إريك بير كوفيتشى
٧١- الأسلاف يتميزون غضباً — كاتب ياسين (مسرح الجيب)
٧٢- الهولندى — ليروا چونز
٧٣- الأقزام — هارولد پينتر
٧٤- الطريق البنفسجى إلى حقل الخشخاش — موريس ميلدون
٧٥- الولد الحالم — يوچين أونيل
٧٦- بعد يوم واحد — چوزيف كونراد
٧٧- كلمات على زجاج النافذة — وليام بتلريتس
٧٨- البروفيسور تاران — أرتير آداموف
٧٩- الملك والمتسولة — جوفيند داس
٨٠- العذاب — جوفيند داس

شعر :

٨١- تأويلات : سبع قصائد إلى عدلى رزق الله
٨٢- لماذا ؟ : قصيدة حب

رسائل جامعية

1 - Thesis for M.A.

- Temporality and The Ontological Experience in the Work of Virginia Woolf, "To the Light-house" and Edwar Al-Kharrat's "Saffron City" : By Maggie H. Awadalla - May 1989 - American University of Cairo. PP.58

2 - Mémoire pour maîtrise

- Rama wa-t-Tennïn, du myth à la mystique, avec traduction de "Mikhail et le Cygne" 1er. chapitre de Rama wa-t-Tennïn, par Catherine Farhi, Juin 1989, Université d'Aixen. Provence, sous la Direction de Mr. Charles Vial, PP.144+31

٣ - بحث لنيل شهادة استكمال الدروس الجامعية

السنة الجامعية ١٩٨٩ - ١٩٩٠ الجوهرى أحمد - "المحكيّ الشعرى فى رواية رامة والتنين"

الرباط ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د.أحمد اليابورى

٤ - بحث لنيل شهادة الدراسات التكميلية

السنة الجامعية ١٩٩٠ - ١٩٩١ عبد الرحمن الناصير - "الوصف فى رواية يابنات اسكندرية"

الرباط ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د.أحمد اليابورى

٥ - جزء من رسالة دكتوراه نالت مرتبة الشرف الأولى

السنة الجامعية ١٩٩١ - ١٩٩٢ محمد مهدى غالى - "صور الشكل السيريالى (توظيف معطيات الحلم والأسطورة وتيار الوعى)"

6 - Thesis for B . A .

- Real and dream-like in Edward Al-Kharrat's Alexandria, by Magda-Lia Bloos, June 1992 Bucharest University, Romania, under Dr. Mioara Roman supervision.

7 - Thesis for M . A .

- The stream of consciousness techniques in the modern novel : a comparative study of James Joyce's, Uiysses and Edwar Al-Kharrat's The Other Time, by Naglaa Roshdy Al-Hawary, 1992.
  Supervision Prof. Amin al-Ayouti & Dr. Al-Sayed Al-Bahrawi, Cairo University, Faculty of Arts, The English Department. PP.270

٨ - بحث لنيل شهادة الدراسات المعمّقة

السنة الجامعية ١٩٩١-١٩٩٢ شداّق بو شعيب - "تشخيص الخطاب الروائى من خلال الزمن الآخر رامة والتنين"
كليـة الآداب والعلوم الإنسـانيـة ، جامـعـة مـحـمـد الخـامـس ، الرباط ، تحت إشراف الدكتور محمد برادة .

(.... ومع تموج جسدها اللدن ، وتضرج الشفتين بالدم ، وعمق الكُحل على العينين النجلاوين الضاربتين، لم أجد حرارة ولا أدنى دفء . كانت فى داخل المرآة، ليس لها مادة، مع تجسدها. لم يكن هناك معى إلا خواء هذا الداخل البرىء من كل عضوية، كان ملمس فمها المفتوح بارداً ومثيراً. أنفاسها متتابعة مخطوفة تحت شفتىّ، وبين ذراعى استحالةُ التلامس مع أنها كانت تلتصق بجسمى المنتفض . كأننى أواجهها لا أعانقها، كأنها شىء لا يُنال قط. فى مكان آخر، فى موقعٍ لا يصل إليه أحد قط . وهى مع ذلك حميمةٌ ومتقدة بالشهوة والمحبة معاً. لم تكن امرأةً، بل كانت مطلق المرأة، تتضرع وتتسلط، تئن وتشكو وتتطلب، خادعة وآمرة لا راد لها. طفلتى وغانيتى الشبقة بالحب ....)

من قصة
" أشواق المرايا "


مركز الحضارة العربية للاعلام والنشر